الفصل الأول
التعريف بياقوت الحموى

مقدمة

يعرض البحث هنا بعض الجوانب الحياتية لياقوت الحموى ، حتى يمكن للقارئ أن يدرك كل ما يدور حول حياة ياقوت ، وفى فترة قصيرة ، ولكل علم من أعلام المعرفة ، ظروف قاسية تحمل من خلالها التعب والجهد ، ويفوق ذلك ترك العالم لأهله ووطنه ، وتكون الحياة أشد قسوة حينما يؤخذ هذا العالم من وطنه قهراً ، لا اختيار له .

ولذا كان علينا أن نجمع كل ما يتعلق بحياة ياقوت بدء من طفولته وحياته الأسرية الأولى ، والظروف التى عاشتها أسرته ، وكيف وصل ياقوت إلى بغداد ، والسبل التى سلكها حتى يحصل على نصيبه من التعليم ، وكيف فرضت الظروف الاقتصادية على ياقوت الحموى العمل والسفر والتنقل بين البلدان ، والفائدة العلمية (الحصيلة المعرفية) التى عاد بها ياقوت من رحلاته وتطوافه بين أرجاء المدن الإسلامية ، الأمر الذى كان له عظيم الأثر ، فى ظهور هذه المؤلفات العلمية لياقوت الحموى والتى تزخر بالمعرفة ، بل فى شتى أنواع المعرفة بين الأدب والتاريخ والنحوى والصرف والجغرافيا ، بل لا نبالغ إذا قلنا فى الطب والهندسة وفن العمارة وعلم الفلك والتى من بينها كتاب " معجم الأدباء " موضوع الدراسة .

وتحدث الباحث باختصار عن رحلات ياقوت وتنقلاته لعدم الإسهاب معرضاً لأهم معالم هذه المدن ، والعلماء المشهورين الذين تتلمذ لهم ياقوت تلمذة مباشرة أو غير مباشرة (أى من خلال مؤلفاتهم) .

وتحدث كذلك عن منهج ياقوت فى التأليف وطريقته فى توثيق المعلومة التى يقتبسها من غيره ، واستشهاده بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، والمكانة التى حظى

بها ياقوت بين العلماء ، وكتاب معجم الأدباء بين نظائره من كتب العلماء . والتزم الباحث بذكر مراجع الدراسة فى تقرير الدراسة (متن الدراسة) بالإشارة إليها على النحو التالى : (الزركلى : ٣ / ٩٥) فمعنى ذلك أن المعلومة موجودة فى الجزء الثالث الصفحة الخامسة والتسعون .

وعند ذكر الآيات القرآنية والأحاديث يشار إليها داخل البحث بذكر اسم السورة ورقم الآية ، أو الحديث وموقعه .

ياقوت الحموى :

قام الباحث هنا بمحاولة لوضع سيرة ذاتية للعالم والأديب ياقوت الحموى ، على ضوء ما قام به ياقوت من كتابات أدبية وتاريخية لبعض الأحداث التى عاش أيامها وقاسم غيره هذه الأحداث ، وكذا الكتابات التاريخية التى تناولت حياته.

أولا : الأسماء المتشابهة مع ياقوت الحموى :

وردت فى بعض كتب العلماء أسماء تشابهت مع ياقوت الحموى بجانب أن جميع هذه الأسماء من الروم ، غير أن كل علم من هذه الأعلام الياقوتية يتميز بعلم من العلوم يختلف به عن غيره بل هناك أشياء تميز كلا منهم عن الآخر ومن هؤلاء :

١ - ياقوت الموصلى :

" أبو الدر ياقوت بن عبد الله الموصلى الكاتب الملقب بأمين الدين والمعروف بالملكى (نسبة إلى السلطان أبى الفتح ملكشاه بن سلجوق بن محمد بن ملكشاه الأكبر) ت : ٦١٨ هـ وقد أخذ الموصلى علم النحو عن أبى محمد سعيد بن المبارك المعروف بابن الدهان النحوى ، فقد قرأ عليه ديوان المتنبى ، والمقامات الحريرية عن طريق ملازمته وقد كتب الموصلى الكثير من الكتب ، وكان يجمع مع ذلك نباهة

تامة وكتب الموصلى بخطه نسخا من كتاب الصحاح للجوهرى كل نسخة فى مجلد واحد(١)

٢ - ياقوت الرومى (أبو الدر) :

" أبو الدر ياقوت بن عبد الله الرومى الملقب بمهذب الدين ، الشاعر المشهور مولى أبى منصور التاجر الحلبى وقد تعلم بالمدرسة النظامية واشتغل بالعلم وأكثر الأدب واستعمل قريحته فى النظم فجاد فيه ولما تميز ومهر سمى نفسه (عبد الرحمن) ، وكان مقيماً بالمدرسة النظامية ببغداد وبها حفظ القرآن الكريم وقرأ من الأدب وكتب خطا حسنا وله ديوان شعر يقع فى عشر كراريس وقد وجد ميتا يوم الأربعاء ١٥ من جمادى الأولى ٦٢٢هـ ولم يعلم متى مات فليس معه فى مأواه أبناء ولا زوجة وكان قد خرج من النظامية فسكن فى دار بدرب دينار الصغير ببغداد التى نشأ بها(٢)

وقد أورد له ابن خلكان مقطوعة من شعره الذى كان أكثره الغزل والتصابى وذكر المحبة فقال :

إن غاض دمعك والأحباب قد بانوا فكل ما تدعى زور وبهتان

---

(١) رجع الباحث للمصادر الآتية :
* ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان ، تحقيق / إحسان عباس الجزء السادس ، (لبنان – بيروت : دار صادر ، ١٩٨٦م) ص ١١٩
* وياقوت الحموى ، معجم الدباء ، الجزء الخامس (لبنان – بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٩١م) ص ٥١٣ * والزركلى ، الأعلام ، الجزء الثامن (لبنان – بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨٦ م)، ص ١٣١ * وابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ف ملوك مصر والقاهرة،الجزء الثامن(القاهرة:دار الكتب المصرية، دز ت) ص ١٨٧ .
* وابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، الجزء الخامس (القاهرة : دار الفكر للطباعة والنشر ١٣٥١هـ) ، ص ٤٤٣

(٢) معجم الأدباء ، ٥/ ٥١٤ وانظر فيه ، ابن تغرى بردى ، مرجع سابق ، ٢٨٣/٥
وابن القطان ، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان ،دراسة وتحقيق د/ محمود على مكى (لبنان : بيروت دار الفكر الإسلامى ، ١٩٩٠م) ص ٣١٦
وابن العماد ، مرجع سابق ، ٥ /١٠٦،١٠٥
والزركلى ، مرجع سابق ، ١٣١/٨
والخطيب البغدادى ، تاريخ بغداد ، (مطبعة الخانجى ، ١٩٣١م) الجزء الثانى ، ص ٢٣٨

وكيف تأنس أو تنسى خيالهم ... وقد خلا منهم ربع وأوطان

لا أوحش الله من قوم نأوا فنأى ... عن النواظر أقمار وأغصان

ساروا فسار فؤدى إثر ظعنهم ... وبان جيش اصطبارى ساعة بانوا

لا افترثغر الثرى من بعد بعدهم ... ولا ترنح أيك لا ولا بان

أجرى دموعى وأذكى النار فى كبدى ... غداة بينهم هم وأحزان

طوفان نوح ثوى فى مقلتى وفى ... طى الحشا لخليل الله نيران

لو كابد الصخر ما كابدت من كمد ... فيكم لجاد له أحد ولبنان (١)

وبعد هذا العرض لهؤلاء الذين تتشابه أسماؤهم مع ياقوت الحموى .

يتضح أن هذا التشابه فى الاسم والموطن والجنس والزمان يرجع إلى إقامتهم بالعراق فقد درج هؤلاء تحت مظلة الرقيق الذين استجلبوا من البلاد الأخرى من خارج العراق مثل بلاد الروم التى هى " إقليم مشهور متسع ، كثير البلاد " (٢) وكان سبب التشابه بين ياقوت الحموى وغيره فى الألقاب والأسماء هو " أن أسواق الرقيق كانت تختار الاسم أو اللقب لأسرى الصغار ، فى العصر العباسى الثانى ، فكانت أسماء الجواهر مثل الياقوت والمرجان واللؤلؤ تطلق على الذكور ، كما أن : نضار ،ولجين ، وفضة ، وماسة كانت من الأسماء التى تطلق على الإناث ولذلك راج اسم ياقوت سواء أكان روميا أم غيره وإنما خلد فى التاريخ من كانت له صلة بالآداب والعلوم "(٣)

كما لاحظ الباحث تفوق هؤلاء العلماء فى الآداب والعلوم حتى أن بعض الأفاضل يقول " كنت بمدينة بغداد فى سنة ٦٢٠هـ بالمدرسة النظامية فقعدت يوما على بابها إلى جانب أبى الدر (ياقوت الرومى) ونحن نتذاكر الأدب " (٤)

---

(١) ابن خلكان ، مرجع سابق ، ٦ /١٢٢، ١٢٣ .

(٢) المرجع السابق ، ٦ /١٢٦.

(٣) السيد محمد ديب ، ياقوت الحموى أديبا وناقدا،الطبعة الأولى (القاهرة:دار الطباعة المحمدية ، ١٩٨٨م ، ص ٢٣.

(٤) ابن خلكان ، مرجع سابق ، ٦ /١٢٥ .

وقد رجع الباحث إلى الكثير من أمهات كتب التراجم مثل الأعلام للزركلى ولسان الميزان لابن حجر، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ووفيات الأعيان لابن خلكان وشذرات الذهب لابن عماد وغيرهم من الكتب الكثير فلم يجد من الأسماء التى تتشابه مع ياقوت الحموى غير ياقوت الموصلى ، وأبو الدر وإن وجد غيرهما فلا تتشابه مع ياقوت الحموى لبعد تواريخ الوفاة عن وفاة ياقوت الحموى .

وقد تحدث ياقوت الحموى فى كتابه (معجم الأدباء) عن الاختلاف بينه وبين من تشابه اسمه معهم فيقول فى ترجمته لياقوت الرومى هو " أبو الدر ياقوت بن عبد الله الرومى ويغلب عليه لقب مهذب الدين (ت:٦٢٢هـ) ، ويقول عنه "أنه أحد أدباء العصر ومن شعرائه المجيدين نشأ ببغداد وحفظ القرآن وعنى بتحصيل العلم فتعلم بالمدرسة النظامية وقرأ فيها العلوم العربية والأدبية على جماعة من العلماء وغلب عليه الشعر وكان حسن الخط والضبط وله ديوان شعر " (١)

ثم يتحدث ياقوت الحموى عن ياقوت الموصلى حتى يثبت هذا الاختلاف الذى بينه وبينهم وأنه مجرد تشابه فى الأسماء فيقول فى ترجمته لياقوت الموصلى هو " ياقوت بن عبد الله الرومى الأصل نزيل الموصل، الكاتب الأديب النحوى (ت : ٦١٨هـ) ، أخذ النحو والأدب عن ابن الدهان هو (أبو محمد ، سعيد بن المبارك بن الدهان البغدادى : ت ٥٦٩ هـ) (٢)

ويقول ياقوت الحموى) اجتمعت به فى الموصل سنة ٦١٣هـ فرأيته على جانب عظيم من الأدب والفضل والنباهة والوقار وقد أمن وبلغ من الكبر الغاية ورأيت كتبا كثيرة

(١) معجم الأدباء ، ٥ /٦١١ انظره فى : ابن تغرى بردى ، مرجع سابق ، ٥ / ٢٨٣ والزركلى ، مرجع سابق ، ٨ / ١٣١ والخطيب البغدادى ، مرجع سابق ، ٢ /٢٣٨ وابن خلكان ، مرجع سابق ، ١٢٢/٦.

(٢) عمر رضا كحالة ، معجم المؤلفين تراجم مصنفى الكتب العربية ، الجزء الرابع (لبنان : بيروت ، دار إحياء التراث العربى ، ١٩٥٧م) ، ص ٢٢٩.

بخطه يتداولها الناس ويتغالون بأثمانها بينها عدة نسخ من كتاب الصحاح للجوهرى والمقامات الحريرية " (١)

ياقوت الحموى :

اسمه ولقبه :

لاحظ الباحث أن المعلومات المتاحة عن ياقوت الحموى فى المصادر التاريخية المعروفة قليلة الفائدة فيما يخص البحث الحالى فهى قليلة بوجه عام وتكاد تكون متكررة من مصدر أخر ، والاختلافات فيما بينها (بالنسبة للمعلومات الأساسية) مختصرة وطفيفة فياقوت الحموى هو :

" أبو عبد الله ، ياقوت بن عبد الله الرومى الجنس ، الحموى البغدادى الدار ويغلب عليه لقب شهاب الدين (٢) هذه هى سلسلة نسبه كما نقلها ابن خلكان فى (وفيات الأعيان) وهو الكتاب الذى اعتمد عليه كتاب الأدب وتاريخه ،وناشر وكتب الأدب والترَث من بين ما اعتمدوا عليه لأن هذا الكتاب يورد ترجمة ياقوت مفصلة واضحة ، بجانب أن ابن خلكان كان معاصرا لياقوت الحموى وتنال كتاباته ثقة الكثيرين" (٣)

ومن المعروف فى التاريخ العربى أن الشخص قد يكون له اسم وكنية ولقب فاللقب علامة على أبرز صفة فيه أو ما اشتهر به بين الناس تكريما له أو تعريفا به مثل الصديق لأبى بكر والفاروق لعمر (رضى الله عنهما) والكنية : هى اللفظ المصدر بكلمة أب أو أم والاسم : هو الذى سمى به عند مولده.

فتجريد اسم ياقوت : يكون هو ياقوت بن عبد الله ،أما الألقاب فنجد سيلا من الألقاب فرضته عليه بيئته ، فاللقب الأول (شهاب الدين) والنسبة إلى الدين كانت

---

(١) معجم الأدباء ، ٥ / ٦١٢ وانظره فى ، الزركلى ، مرجع سابق ، ٨ /١٣١ ابن العماد ، مرجع سابق ، ٥ / ٤٤٣

(٢) ابن خلكان ، مرجع سابق ، ٦ /١٢٧ والزركلى ، مرجع سبق ، ١٣١/٨وجورجى زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، تحقيق وتعليق شوقى ضيف،الجزء الثالث (القاهرة:دار الهلال د.ت) ص ٨٨ .

(٣) السيد محمد ديب ، مرجع سابق ، ص ٣٤.

شائعة إذ ذاك بين الناس وواللقب الثانى (الرومى) لأنه ولد ببلاد الروم (آسيا الصغرى)؛ واللقب الثالث (الحموى) لأن تاجرا من بغداد من قبيلة حموية اشتراه " (١) وقد كان هذا التاجر من أهل حماة ثم انتقل إلى بغداد وينسب البغدادى لأنه سكن بغداد بجانب سيده وقد أخطأ ابن العماد الحنبلى حينما لقبه الدرى " (٢) فأبو الدر هذا سبق الكلام عنه ...

مواطن ياقوت الحموى :

تبين من خلال المراجع التى تناولت حياة ياقوت الحموى والتى رجع إليها الباحث أنه لا توجد بلدة بعينها يمكن أن تعتبر موطنا له ولم تعرف بالتحديد البلدة التى ولد فيها ياقوت فقد أخذ من بلاده صغيرا " (٣) وما عرف عنه أنه من بلاد الروم وهى واسعة (فبلاد الروم إقليم مشهور متسع كثير البلاد)(٤) ، فليست لياقوت بلدة رومية معينة ينسب إليها فقد " افتقد فى طفولته ماضيه ، فهو يجهل بلدته الحقيقة ، وكل شىء عن حياة ياقوت فى بلاد الروم غير معلوم (٥) وهكذا لا تستطيع الدراسة أن تجزم بشىء فى شأن موطن ياقوت الأصلى وحياته قبل أسره من بلاده وقد ذكر بعض المؤرخين أن ياقوت الحموى ينتسب إلى بلاد اليونان فذكر الدكتور / زكى محمد حسن أن ياقوت يونانى فقال " ياقوت يونانى الجنس ، على أن اليونان كانت جزءا من الدولة الرومانية البيزنطية " (٦)

ويرى الباحث أن هذا الرأى قد يكون بعيدا عن واقع حياة ياقوت الحموى فمن عاصر ياقوت من الكتاب والمؤرخين لم يذكروا موطنا لياقوت لعدم وجود أدلة تكون دليلا

---

(١) كراتشكوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم (القاهرة : منشورات لجنة التأليف ، والترجمة والنشر – جامعة الدول العربية ، ١٩٦٣م ، ص ٥٦.

(٢) ابن العماد ، مرجع سابق ، ٥ /٤٤٣.

(٣) الذهبى، العبر فى أخبار من غبر،تحقيق صلاح الدين المنجد وآخرون الجزء الخامس(الكويت، ١٩٦٠م)،ص١٠٦

(٤) ابن العماد ، مرجع سابق ، ١٠٦/٥ ومعجم البلدان ، ١١/٥

(٥)ابن خلكان ، مرجع سابق ، ١٣٩/٦ ،وابن شاكر الكتبى (٧٦٤هـ) ، فوات الوفيات ، تحقيق د/ إحسان عباس الجزء الأول (لبنان – بيروت : دار صادر ، د.ت) ، ص ص ١٥،١٦

(٦)زكى محمد حسن،الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى،الطبعة الثانية(القاهرة:دار المعارف،١٩٤٥م)،ص:١٠٢.

على قولهم وشاهدا يستندون إليه ناهيك عن إحجام صاحبنا عن ذكر ما يدل على موطنه فى كتاباته المتعددة ، لذلك فإن الباحث لا يميل إلى أن يكون ياقوت يونانيا .

مولده ووفاته :

كانت ولادة ياقوت الحموى فى سنة أربع أو خمس وسبعين وخمسمائة ببلاد الروم"[١] وقد ذكر ناشر كتاب معجم البلدان طبعة بيروت أنه لا يعلم شيء عن تاريخ مولده " [٢] وهذا الرأى هو ما تجمع عليه الدراسة وذلك بسبب أسر ياقوت من بلاده وهو طفل صغير ولقد أقر المؤرخون الذين جاءوا بعد ابن خلكان ما ذكره عن مولد ياقوت فقد"ارتضوا سنة أربع وسبعين وخمسمائة من الهجرة تاريخا لمولده "[٣] ومن هنا لا يجد الباحث حرجا من سرد هذه الآراء ومتابعتها حتى تعم الفائدة

أما عن وفاته : فقد جاء فى الجزء الخامس من كتاب شذرات الذهب (لابن عماد الحنبلى ت : ١٠٨٩ هـ) فى الكلام عن رجالات القرن السابع قال : توفى (يعنى ياقوت) يوم الأحد العشرين من رمضان سنة ست وعشرين وستمائة بمدينة الخان بظاهر مدينة حلب "[٤] وقد وافق ابن خلكان رأى ابن عماد بقوله " توفى ياقوت الحموى يوم الأحد العشرين من رمضان ٦٢٦هـ فى الخان بظاهر مدينة حلب "[٥] وقد ارتضى عمر رضا كحالة ذلك فى كتابه (التاريخ والجغرافيا فى العصور الوسطى)[٦]

تعقيب :

مما سبق يتبين أن تاريخ مولد ياقوت الحموى غير معلوم فقد أسر من بلاده صغيرا لا يدرى شيئا عن طفولته ولا موطنه أما وفاته فقد كانت فى سنة ٦٢٦ه.

---

(١)ابن خلكان ، مرجع سابق : ١٣٩/٦

(٢)ياقوت الحموى ، معجم البلدان : ١٥/١

(٣)زغلول راغب النجار ، وعلى عبد الله الدفاع ، اسهام علماء المسلمين الأوائل فى تطور علم الأرض (منشورات مكتب التربية العربى لدول الخليج ، ١٩٨٨م) ، ص ٣٩٢.

(٤)ابن العماد ، مرجع سابق ، ١٢٢/٥.

(٥)ابن خلكان : مرجع سابق ،١٣٩/٦

(٦)عمر رضا كحالة : التاريخ والجغرافيا فى العصور الوسطى ،(دمشق : المطبعة التعاونية ، ١٩٧٢م ، ص ٥٢٤.

السبب الذى من أجله لقب ياقوت بالحموى :

كانت بلاد الروم التى ولد فيها ياقوت وأسر منها على عداء مستمر مع دولة الفرس ولم تكن الحروب تنقطع بين هاتين القوتين فلما ظهر الإسلام فى بداية القرن السابع الميلادى عاشت هاتان الدولتان فى قلق وبدأ الصراع بين هذه الأطراف خاصة وأن الدولة الرومانية تقترب من شبه الجزيرة العربية ونتيجة للحروب والمعارك بين الروم والمسلمين فقد " دخل كثير من الروم فى الإسلام ودخلوا شبه جزيرة العرب حيث يوجد رسول الإسلام – صلى الله عليه وسلم – وذلك عند بدء الدعوة الإسلامية وقد نتج من ذلك ظهور أسواق النخاسة فى العراق والشام وغيرهما حيث يباع الأسرى من الروم والفرس وكثير من تجار الرقيق يملكون قلوبا كالصخر قلوبا لا تعرف شفقة ولا رحمة وإنما تعرف جيدا الدينار والدرهم "(١)

ومن بين هؤلاء الأسرى من الروم ياقوت الذى وصل مع الأسرى إلى بغداد حيث السلاجقة الأتراك يحكمون باسم الخليفة العباسى وكانت هذه هى المحطة الأولى فى تاريخ حياة ياقوت التى ينزل فيها بعيدا عن بلاده وأسرته فقد " تم بيع ياقوت فى سوق بغداد فقيل له البغدادى "(٢) وهو لقبه الأول أما سبب إطلاق لقب الحموى عليه فقد "كان التاجر الذى اشتراه فى بغداد يسمى " عسكر بن أبى نصر إبراهيم الحموى " لأنه كان من حماه فاكتسب ياقوت لقب الحموى من سيده ، الذى نشأه نشأة إسلامية "(٣)

وقد حاول ياقوت أن يغير اسمه إلى يعقوب فيقول ابن عماد " لما تميز ياقوت واشتهر سمى نفسه يعقوب "(٤)

---

(١)السيد محمد ديب ، مرجع سابق ، ص ٣٥

(٢)ابن خلكان ، مرجع سابق ، ١٢٧/٦.

(٣)صلاح المنجد ، أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب ، الجزء الأول (دار الفكر دزت) ص ٦١.

(٤)ابن عماد ، مرجع سابق ، ٤٤٥/٥.

غير أن ياقوت بقى رقيقا حتى بلغ سن العشرين (فقد أعتقه سيده بعدها)، وسمى ياقوت لأن أسماء بعض الأرقاء عند العرب كانت تؤخذ من أسماء الأحجار الكريمة "(١)

ومما سبق يتبين أن ياقوت أطلق عليه لقبان هما الحموى ، والبغدادى ،وأحيانا الرومى لكنها إلى النسب أقرب وكان السبب فى ذلك أسواق النخاسة (الرقيق)

بيئته ونشأته :

لم يستطع الباحث الحصول على أية معلومات تخص البيئة التى نشأ بها ياقوت فقد خلت المصادر التاريخية من الحديث عن بيئته الأولى والتى تخص الأسرة التى اندرج منها ياقوت وكل المعلومات المتاحة عن حياته إنما هى بعد أن بيع فى أسواق الرقيق

فقد " بدأ الصبى حياته الجديدة فى بغداد حيث أسر من بلاده صغيرا وابتاعه ببغداد رجل تاجر يعرف (بعسكر بن أبى نصر بن إبراهيم الحموى) ومن منزل سيده الذى اشتراه بدأ حياته "(٢) ثم أعقب ذلك أنه واصل الإقامة ببغداد فترة ليست طويلة فقد " أقام سيده عسكر (رجلا مسلما طيب القلب) ببغداد واستقر فيها لأنه تزوج منها وبنى حياته فيها وقد كان تاجرا ومن عادات التجار فى العصور الوسطى أنهم كانوا يتزوجون فى البلاد التى ينزلون بها مدة من الزمن "(٣)

ولاتساع تجارة عسكر الحموى كان فى حاجة إلى أن يحافظ على هذه التجارة الواسعة التى ينتقل بها من بلد إلى بلد فإقامته ببغداد ليست إقامة كاملة ولذا كان محتاجا إلى معاونة من شاب يحسن القراءة والكتابة ويتقى الله فى أعماله فاشترى ياقوت الحموى ليصنع منه شابا مسلما متعلما مثقفا تاجرا ناضجا ورحالة يتحمل أعباء السفر ومشقات الطريق "(٤) وقد أورد عبد الرحمن حميده قوله فى ياقوت الحموى) قال

---

(١)زغلول راغب النجار ، وعلى عبد الله الدفاع ، مرجع سابق ، ص ٣٩٢.

(٢)اليافعى ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، الجزء الرابع ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٩٧) ، ص ٢١٤.

(٣)زكى محمد حسن ، مرجع سابق ، ص ١.٣.

(٤)السيد محمد الديب ، مرجع سابق ، ص ٣٧

" أن والد ياقوت الحموى وقع أسيرا فى أيدى الروم واسمه عبدالله وعاش فى آسيا الصغرى (بلاد الروم) مدة طويلة فتزوج وأنجب ياقوت ثم جرت معركة بين العرب والروم فوقع الطفل ياقوت فى يد العرب فبيع فى أسواق الرقيق ببغداد فاشتراه عسكر الحموى وعندما أعتقه اختار ياقوت لنفسه اسم يعقوب ولكنه فشل فقد أصر معاصروه أن يبقى اسمه ياقوت "(١)

ويرى الباحث هنا أن راجى عنايت قد انفرد برؤايته التى رأى فيها ما يمس حياة ياقوت الحموى فى طفولته وهو ما لم تجمع عليه المصادر التاريخية التى توقفت عن الخوض فى حياة ياقوت الحموى قبل أسره فى بلاد الروم .

وكان الدافع الذى جعل سيده عسكر يهتم بتعليمه أنه وجد فيه سمات طلاب العلم من صفاء القريحة ورجاحة العقل فقد ذكر عبد الرحمن حميده فى كتابه (أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم) قوله " رأى سيده التاجر الذى لم ينل حظا وافرا من التعليم أن يفيد من هذا الحدث النابه الذى لاحظ فيه صفات الذكاء فعمل على أن يوفر له ذلك التعليم كى يستعين به فى حساباته ومعاملاته فأدخله الكتاب يتعلم فيه الكتابة واللغة وبذلك أصبحت اللغة العربية لغته القومية ونال فيه تعليماً إسلامياً جيدا وتوسع فى دراسته فاهتم بالنحو والأدب وهكذا حصل على ثقافة واسعة متينة جعلت منه كاتباً ماهراً يساعد سيده رجل الأعمال "(٢) الذى كان على سعة من العيش ودفعته مصالحه إلى الإقامة ببغداد فى تصريف أعماله وصفقاته التجارية ولعل الأمانة والاستقامة كانت من الصفات الرئيسية فى ياقوت والتى دفعت سيده إلى أن يشركه فى تجارته ذاتها فقد " كان كثيرا ما يصطحبه فى أسفاره التجارية بل أنه كان يبعثه أحياناً بمفرده "(٣)

---

(١)راجى عنايت ، ياقوت الحموى ، (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٩م ، ص ١٧ نقلا عن عبد الرحمن حميده: علام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم،(دمشق : دار الفكر العربى ،١٩٦٩م) ، ص ٢٢٧.
(٢)عبد الرحمن حميده ، مرجع سابق ،ص ٢٢٧.
(٣)السيد محمد ديب ، مرجع سابق ، ص ٣٨ .

وقد فرق ابن خلكان بين تعليم ياقوت الحموى فى صباه وبين تعليمه الكبر فقال "وجعله سيده فى الكتاب لينتفع به فى ضبط تجارته فقد كان مولاه عسكر لا يحسن الخط ولا يعلم شيئا سوى التجارة ولما كبر ياقوت قرأ شيئاً من النحو واللغة (١)

لاحظ الباحث مما سبق أن عسكر الحموى هذا قد اختار ياقوت لأنه طفل صغير لم يعرف لؤماً ولا مكراً فأراد له نشأة سليمة على أساس إسلامى رفيع فأحسن إليه واهتم به وأدخله الكتاب ليتعلم القراءة والكتابة وشيئاً من الحساب حتى يستفيد به فى تجارته وهنا هدأت نفس ياقوت مع حنان سيده وعطفه، ويمكن القول أن ياقوت لم يتعلم العلم حباً فى العلم ولا طلباً لتحصيل مادة معينة بل أنه تعلم من أجل النجاح فى إدارة تجارة سيده وكان نبوغه حينما كبر فقد اهتم بتحصيل الكثير من النحو واللغة والقرآن الكريم فاكتملت قدرته العلمية على العمل والحركة وخرج إلى ميدان الحياة حيث العمل والتجارة والأسفار، ويمكن القول أن ما حصله ياقوت من العلم كان فى بدايته بسبب التحاقه بالكتاتيب ثم إذا به يخرج إلى الحياة التى تعد مدرسة متعددة الفصول طويلة المناهج ،بها الكثير من التجارب التى يتعلم منها الإنسان حياته العلمية والعملية كل ذلك " دفع ياقوت الحموى إلى أن يعقد العزم على الإخلاص لسيده الذى أحسن إليه "(٢)

الرحلة وأثرها فى حياة ياقوت :

كانت الرحلة فى هذه العصور التى عاشها ياقوت مع علمائها) لطلب العلم من أبرز مصادر التعليم بل إن بعض العلماء دمج بين الرحلة للتجارة وطلب العلم ومن هؤلاء العلماء ياقوت

فقد كانت أولى رحلاته التجارية إلى منطقة الخليج الفارسى (الخليج العربى حاليا) ففيه تقع جزيرة كيش فى بحر عمان والتى قال عنها ياقوت فى كتابه (معجم البلدان) هى " تعجيم قيس وهى جزيرة تقع فى وسط البحر وتعد من مدن فارس لأن

(١)ابن خلكان ، مرجع سابق ، ١٢٧/٦.
(٢)معجم الأدباء ، ٢٥/١.

أهلها فرس وتعد أيضا من مدن عمان لقربها منها وقد نسب المحدثون إليها (إسماعيل بن مسلم العبدى الكيشى قاضيها) وقد روى عنه يحيى بن سعيد ووكيع وعبد الرحمن المهدى وكان ثقة " (١)

وقد كانت هذه الرحلات فرضا من سيده لمباشرة أعماله المتناثرة فى الكثير من البلاد فقد " شغله مولاه بالأسفار فى متاجرة فكان يتردد إلى كيش وعمان وغيرها من البلدان ويعود إلى الشام " (٢)

ومما سبق لاحظ الباحث أن ياقوت كان ميدانه واسعا فى هذه السن من خلال تردده بين كيش وعمان وعودته إلى الشام ورجوعه بعد ذلك إلى بغداد حيث يوجد مولاه ولقد أفاد ياقوت الحموى من هذه الرحلات التجارية والعلمية أحيانا فى التعرف على الكثير من البلاد والخبرة فى معرفة الأقاليم ذات التفوق التجارى وأماكن تركز العلماء وفنونهم بل إن موسوعته (معجم الأدباء) خير شاهد على إفادته من هذه الرحلات التى قام بها إلى الكثير من البلدان ولعدم الإسهاب نقتطف من ينابيع هذه الموسوعة بعض رحلات ياقوت إلى بعض الأماكن ، ففى رحلته إلى قرى الحجاز يقول عن هذه المدن "وفدك قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان ، وقيل ثلاثة ،أفاءها الله على رسوله (ﷺ) فى سنة سبع صلحا (أى صلح الحديبية) وكان رئيسها يومئذ (يوشع بن نون اليهودى) وقد أصاب أهل فدك الخوف والرعب عندما علموا استيلاء النبى (ﷺ) على خيبر فصالحوه على نصف الأرض بتربتها فقبل ذلك منهم وأمضاه رسول الله (ﷺ) وصار خالصا له لأنه لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب (أى تم الاستيلاء عليها بدون قتال ، وهى التى قالت فيها فاطمة (رضى الله عنها)إن رسول الله (ﷺ) نحلنيها (وهبها لى وأعطانى

(١) معجم البلدان ، ٥٦٥/٤ وابن خلكان ، مرجع سابق ، ١٥٠/٢
(٢) معجم الأدباء ، ٢٧/١ وابن خلكان ، مرجع سابق ، ١٢٧/٦.

إياها) فقال : أبو بكر (رضى الله عنه)أريد لذلك شهودا وذكر ياقوت قصتها واستطرد فيها " (١)

وتحدث ياقوت الحموى عن فضل مصر ، وامتدح سلطانها ، وذكر الكثير من المواقف العلمية التى شهدها بمصر وأثار دهشته رؤيته لفن العمارة المصرية والمثلة فى الأهرام فقال "إن مصر خزائن الأرضين كلها وسلطانها سلطان الأرضين كلها ألا ترى إلى قول يوسف (عليه السلام) لملك مصر.

" قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ "(٢)

ففعل فأغاث الله الناس بمصر وخزائنها ولم يذكر الله (عزوجل) فى كتابه الكريم مدينة بعينها بمدح غير مكة ومصر فقال (سبحانه وتعالى – " أليس لى ملك مصر" وهذا تعظيم ومدح " (٣) فى شأن مصر وأهلها والخير الوفير الذى نال منه ياقوت أثناء إقامته بمصر وكان عونا على تحمل مصاعب الحياة وتحدث ياقوت عن الآثار التاريخية بمصر مثل الأهرامات فيقول " وقد رأيت الهرمين وقلت لمن كان فى صحبتى غير مرة إن الذى يتصور فى ذهنى أنه لو اجتمع كل من بأرض مصر من أولها إلى آخرها على سعتها وكثرة أهلها وصمدوا بأنفسهم عشر سنين مجتهدين لما أمكنهم أن يعملوا مثل هذين الهرمين ثم يقول:وما سمعت بشىء تعظم عمارته فجئته إلا ورأيته دون صفته إلا الهرمين فإنى رأيتهما أعظما من صفتهما " (٤)

ويقول ضمن حديثه عن مصر" وفى مصر رأيت قرية أطواب من أعمال البهنسا وقرية بومة فى كورة الغربية وبرمة : من بلاد سليم وقال ابن حبيب برمة عرض من

(١) معجم البلدان ، ٤ / ٢٣٨
(٢) سورة يوسف : الآية ٥٥
(٣) الرجع السابق ، ١٣٧/٥
(٤) معجم البلدان ، ٤٠/٥.

أعراض المدينة قرب تلاكث بين خيبر ووادى القرى وبرمة أيضا بليدة ذات أسواق فى كورة الغربية من أرض مصر فى طريق الإسكندرية من الفسطاط ويقول ياقوت رأيتها (١)

وعن بركة الحبش يقول " هى أرض فى وهدة من الأرض واسعة طولها نحو ميل مشرفة (تطل) على نيل مصر خلف القرافة وهى وقف على الأشراف تزرع فتكون خضراء لزكاة أرضها وهى من أجل منتزهات مصر ويقول ياقوت رأيتها وهى ليست ببركة للماء وإنما شبهت بها وكانت تعرف ببركة المعافر أو بركة حمير وعندها بساتين تعرف بالحبش والبركة منسوبة إليها وهى محبوسة فى ريها على البئرين اللتين استنبطهما (أبو بكر المارداني) فى بنى وائل بحضرة الخليج والقنطرة ويقول (على بن محمد بن أحمد بن حبيب التميمى الكاتب) عن بركة الحبش قوله :

أقمت بالبركة الغراء مرهفة ... والماء مجتمع ففيها ومسفوح

إذا النسيم جرى فى مائها اضطربت ... كأنما ريحه فى جسمها روح (٢)

ومما سبق يلاحظ أن ياقوت عندما يتحدث عن بلد من البلدان يقوم بوصفه أولا حتى يصل بهذا الوصف إلى كل أثر واضح ومكان بارز أو علامة بهذا البلد الذى يتناوله بالحديث ولقد كان بارعاً فى وصف ما رأته عيناه أو جرى فى خاطره وهو يصور الأشياء الحسية التى يمكن مشاهدتها على الطبيعة وكان اعتماده على المحسوس أكثر فى رحلاته العلمية والتجارية من المعنوى حتى يقدم للقارئ ما يريد أن ينقله فى عبارات وأسلوب واقعى يسوده الصدق والثبات والدقة والوضوح ولا يرضى بديلا عن ذكر الحقيقة مهما كلفه ذلك من عناء ومشقة خاصة إذا عرفنا أن صاحبنا لم يكن يملك بيتاً يأوى فيه إلى زوجة تشاركه آلامه وليس لديه المال الذى يشترى به الكتب والمراجع حتى يتجر فيها ويتعلم منها ومع ذلك استطاع أن يتجول فى ترحاله بين البلدان بحثا عن الكتب ،إلى جانب

(١)المرجع السابق ، ٤٧٩/١

(٢) المرجع السابق ، ٤٧٧/١.

تجارته الأخرى وكان أحيانا يتحمل تقلبات الجو من أجل الحصول على العلم فقد "كانت رحلاته وتنقلاته ليست إلا تنقل عاقل يرحل فى اقتناص شوارد العلم وغرائبه ونوادره وشوارد اللغة : غرائبها ونوادرها (١) ولقاء الرجال ولم يعبأ بتعب أو نصب "(٢) ويمكن أن نتصور طبيعة هذه الأسفار فى لابرد القارس أو الحر اللافح وكيف تكون ؟

العلماء الذين التقى بهم فى مصر

لقد تحدث ياقوت عن رجال من العلماء التقى بهم فى مصر أفاد منهم فقد ذكر فى ترجمته (لأبى المظفر ،أسامة بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر بن منقذ الكنانى الكلبى الشيزرى ويغلب عليه لقب مؤيد الدولة مجد الدين (ت : ٦١٣هـ)من أكابر بنى منقذ ومن العلماء الشجعان له تصانيف فى الأدب والتاريخ منها : لباب الآداب قال الزركلى انه مطبوع و(البديع فى نقد الشعر) قال الزركلى انه مطبوع و(المنازل والديار) قال الزركلى انه مطبوع و(النوم والأحلام) قال الزركلى انه مخطوط و(القلاع والحصون) و (أخبار النساء)و(العصا) قال الزركلى مطبوع منتخبات منه وقد انتقل إلى مصر سنة ٥٤٠هـ وقاد عدة حملات على الصليبيين فى فلسطين ويقول ياقوت وقد رأيته عند كونى بمصر سنتى ٦١١هـ ٦١٢هـ وأنشدنى شيئا من الشعر له ولوالده وقد عاد أبو المظفر إلى دمشق ثم برحها فدعاه السلطان إليه فأجابه وقد تجاوز الثمانين وقد كان جماعة للكتب (٣).

وقد وصف ياقوت الحموى هذا العالم (اسامة بن مرشد) بعدد من الصفات التى يجب أن تتوفر فى العلماء فيقول لقيت أسامة بن مرشد بمصر وهو يومئذ شيخ ظريف واسع الخلق شائع الكرم جماعة للكتب وقد حضر ياقوت إلى دار أسامة بن مرشد فاشترى منه الكثير من الكتب التى لا يستطيع أسامة أن يحصيها عدداً غير أنه باع منها أربعة آلاف مجلد فى نكبة لحقته فلم يؤثر فيها (٤)

(١) الرازى ، مختار الصحاح ، تحقيق / محمود خاطر (الاهرة دار الحديث دزت) ص ٤٩٧ .
(٢) القفطى ، ابناه الرواة على أنباه النحاة ، تحقيق / محمد أبى الفضل إبراهيم ، الجزء الرابع (القاهرة : دار الكتب المصرية ، ١٩٥٠م)، ص ١٣٧.
(٣) الزركلى ، مرجع سابق ، ٢٩١/١ وجورجى زيدان ، مرجع سابق ، ٦١/٣
(٤) ابن خلكان : مرجع سابق : ٦٣/١ وفى معجم الأدباء : ١٠٣/٢، ١٢٧

ولاحظ الباحث هنا أن ياقوت ذكر فى ترجمته لأبى المظفر أسامة بن مرشد بعض صفات المعلم الناجح غير أن ياقوت لم يهتم بإيضاح الصفات الجسمية والصفات المعنوية وعذره فى ذلك أن لم يؤرخ لعالم بعينه بل ذكر الكثير من تراجم العلماء وهذه الصفات التى ذكرها ياقوت قد تكون فى معظمها صفات ظاهرية من حسن المظهر سواء أكان ذلك من حيث الملبس أو المشى أو تهذيب شعره وتكوير العمامة وتسريح اللحية وغير ذلك من الصفات الحسمية والكرم والأخلاق بل الالتزام ببعض القيم الأخلاقية والسلوكية الرفيعة وقد عمد ياقوت إلى وصف هذا العالم بأنه يجمع الكثير من الكتب ويمكن لنا أن نعتبر ذلك من الوسائل المعينة على تحصيل العلوم لما تجمعه بطون هذه الكتب من علم العلماء وفقه الفقهاء ...الخ وقد نستطيع جمع بعض من صفات المعلم الناجح ونعبر عنها بلغة عصرية على النحو التالى :

١- الالتزام بالمظهر الخارجى المقبول داخل مكان التدريس وخارجه
٢- مراعاة مستوى فهم الطلاب
٣- اتخاذ كل الوسائل المعينة على التحصيل
٤- الاستعانة بدفتر التحضير أو مرجع التدريس
٥- الالتزام ببعض القيم الأخلاقية السلوكية الرفيعة
٦- توفير مناخ تعليمى يساعد على التحصيل ولمزيد من ذلك انظر كتاب مع تراثنا التربوى ، للدكتور مصطفى رجب (١)

وقد أفاد ياقوت الحموى الكثير أثناء إقامته بمصر فقد كان يجالس العلماء وأكابر الناس من الأدباء والشعراء يأخذ عنهم العلم ويستمع إليهم ويناقشهم فقد كانت مصر وقتها قلعة من قلاع الدولة الأيوبية وحصناً أميناً لرجال الأدب والفكر ولذلك قضى ياقوت فيها مدة من الزمن يبيع الكتب ويتاجر فيها غير أنه تركها فى سنة ٦١٢هـ متجها

(١) مصطفى رجب:مع تراثنا التربوى (شخصيات ونصوص)،الطبعة الأولى(القاهرة:مكتبة كويت،١٩٩٩م،ص ٩٨

إلى جنوب دمشق ولم يستطع ياقوت الإقامة بعيداً عن مصر فقد عاد إليها من حلب مرة أخرى فى سنوات عمره الأخيرة " (١)

ومما سبق يلاحظ أن ياقوت الحموى لم يترك الرحلة والتنقل بين البلدان مادام يجد فى نفسه القوة على ذلك ففى مصر عاش ياقوت فترة من الزمن قد تصل إلى عامين وتنقل فيها بين مدنها وقراها وقد جمعت هذه الرحلة بين الدراسة والتجارة ولو تتبعنا تجواله فى مصر لوجدناه يتحدث عن كل موضع فى مصر فقد كان يشاهد بنفسه قبل أن يتحدث عن مكان المشاهدة وعندما يرى رؤية جديدة كان لا يكتفى برؤية واحدة بل كان يكررها مرة تلو المرة حتى يمكنه الإفادة من هذه الرؤية بالإضافة إلى الإفادة العلمية التى اكتسبها ياقوت أثناء إقامته بمصر ولقائه للعلماء وحضوره مجالس هؤلاء العلماء وجمعه للكثير من كتب العلماء بمصر وقد كان لهذه الكتب أثرها الواضح فى تقدم ياقوت من الناحية العلمية والأدبية حتى نبغ هذا النبوغ الذى يستطيع الباحث أن يقول أنه يعد أحد الأعلام المؤرخين للعلم فهو أديب لغوى بالدراسة ، لكنه مؤرخ تربوى بالصدفة.

ياقوت الحموى فى دمشق :

لقد تردد ياقوت فى رحلاته التجارية والعلمية على الشام والعراق لمزاولة مهنته فقد " وصل إلى دمشق عائداً من القاهرة فى سنة ٦١٢هـ وتحدث عنها فى (معجم البلدان) فعدها ياقوت جنة الأرض بلا خلاف لحسن عمارتها وكثرة فاكهتها وكثرة مياهها ووجود الكثير من الطرق الممهدة بداخلها وتبلغ دمشق كما رآها ياقوت طولها ستون درجة وعرضها ثلاث وثلاثون درجة ونصف (٢)

وذكر ياقوت أن دمشق كثيرة الأنهار وهو ما لم يره فى بلد آخر ،فإن الأنهار تجرى فى قنواتها بالماء فقلما تمر بمسجد ولا مدرسة ولاحى ولا شارع إلا والماء يجرى فى بركة فى

(١) السيد محمد ديب ، مرجع سابق ، ص ٤٤
(٢) معجم البلدان ، ٥٢٧/٢

صحن هذا المكان وأما جامعها فهو الذى يضرب به المثل فى حسنه ، فهو جامع المحاسن حتى أن أهل دمشق قد عدوه إحدى العجائب فقالوا : إن الوليد بن عبد الملك بن مروان هو الذى قام ببنائه وكان ذا همة فى عمارة المساجد وبدمشق من الصحابة والتابعين وأهل الخير الكثير فهم يزورون فى ميدان خاص بهم يعرف بميدان الحصى ، وبجانب هذه المميزات التى جمعتها دمشق فقد كانت رحلة ياقوت إليها أمراً عليه وجب وذلك من حيث تجارته التى يمكنه أن يوزعها على أهل دمشق ، وكذا زيارته لبعض الآثار الإسلامية والأماكن الطاهرة وفى مقدمة ذلك الإفادة العلمية التى أفادها من علماء دمشق فقد ضمت دمشق من العلماء بل من أعيان المحدثين (عبد العزيز بن أحمد بن محمد بن سليمان الدمشقى ، الكنانى الصوفى الحافظ : فقد سمع الدمشقى الكثير وكتب من الكتب الكثير فسمع من أبى القاسم صدقة بن محمد القرشى وأبى نصر بن هارون الجندى ورحل إلى العراق فسمع محمد بن مخلد ، ونسخ بالموصل وجمع جموعا كثيرة ، وكان شيخاً لابن الأكفانى وقد خرج عنه الخطيب فى عامة مصنفاته ، فيقول : حدثنى عبد العزيز بن أبى طاهر الصوفى وقد عاش من ٣٨٩هـ إلى ٤٦٦ هـ ، وممن ينسب إليها من المسلمين الكثير فقد ألف لها الحافظ بن عساكر تاريخا مشهورا يعرف بتاريخ دمشق وممن اشتهر بذلك فلا يعرف إلا بالدمشقى (يوسف ابن رمضان بن بندار الدمشقى الفقيه الشافعى) فقد ولد يوسف بدمشق وخرج منها بعد البلوغ إلى بغداد ، وهناك ولى التدريس بالمدرسة النظامية وبنيت له مدرسة فكان يذكر فيهما الدرس وانتهت إليه رياسة أصحاب الشافعى ببغداد فى وقته وحدث بشىء يسير عن (هبة الله بن أحمد البخارى وعقد مجلس التذكير ببغداد حتى توفى فى شوال سنة ٥٦٣هـ (١)

(١) المرجع السابق،٥٢٨/٢،٥٢٩،٥٣٤،ومعجم الأدباء١٠٤/٢وعمر رضا كحالة،مرجع سابق،٤٥/١، ١٠١ ، ٢٦٧ . وابن خلكان ، مرجع سابق ، ١٢٨/٦.

ولاحظ الباحث أن ياقوت اقتصر على ذكر هؤلاء لأنه روى عنهم وقرء من كتبهم الكثير وترك الكثير من العلماء الذين لم يدركهم وهم ينسبون إلى دمشق وقد تأثر ياقوت الحموى ببعض آراء الخوارج الأمر الذى عرضه أثناء تواجده بدمشق لبعض المشاحنات التى كادت تودى بحياته وقد أخذ عليه بعض

العلماء المعاصرين له مجالسته لمن دونه فى التفكير فقد " كان ياقوت يتجه إلى الأسواق بدمشق كعادته فى التجارة حتى يتجر فى هذه الأسواق وبالأسواق يختلط الحسن بالسيئ وتكثر الخلافات ويشتد الصراع حول الربح وتكثر تشدقات التجار بالألفاظ والإيمان ويزداد التنافس حول العرض والطلب وعلى وجه الخصوص السلع القليلة أو النادرة الأمر الذى جعل ياقوت يجلس فى أسواق دمشق فى عام ٦١٣هـ ويناظر بعض من يتعصب للإمام على(رضى الله عنه) بما لا يسوغ فثار الناس عليه ثورة وكادوا يقتلونه فسلم منهم وخرج من دمشق منهزماً بعد أن بلغت القضية إلى والى البلد فطلبه فلم يجده"(١)

ومما سبق لاحظ الباحث أن ياقوت الحموى كان مندفعاً فى مناظرته ولنا أن نصفه بحدة الطبع ولم يدرك أثناء جلوسه فى السوق حب وتقدير العلويين للإمام على (رضى الله عنه) مما دفع هؤلاء إلى الثورة ضده ، بل كاد الأمر يصل إلى قتله ولكن الله عز وجل – أنقذه منهم بالإضافة إلى ذلك فلنا أن نصف ياقوت بالحماقة والطيش فهو الذى جمع من العلم الكثير والمعرفة الواسعة والفضل على من دونه يناظر أحد المعجبين بعلى ثم يتحدث عن على بكلام لا تقبله عقول هؤلاء الذين ارتضوا من على (كرم الله وجهه) أن يكون لهم القدوة والمثل الأعلى مع أن ياقوت بلغ فى هذه الآونة الأربعين من عمره والكل يعلم أن هذه السن هى التى يبدأ الإنسان فيها ينتابه الشعور بالكهولة فيعتدل فى تصرفاته ويستقيم فى حياته وتهدأ ثورته مع هدوء قوته ويبدأ محاسبة نفسه على ما كان قدمه من

(١) ابن خلكان ، مرجع سابق ، ١٢٨/٦. وعلى أدهم ، مجلة الثقافة ، السنة الثالثة عشر ، العدد ٦٤٢ ، ص ٧ .

عمل فى سنوات عمره السابقة حتى يصبح معتدلاً متزناً محبوباً بين الناس قريباً منهم ولكن يمكن أن نرجع ذلك كله إلى كثرة إطلاع ياقوت على كتب الخوارج والتأثر بآرائهم ومجاراتهم ومع هروبه من دمشق لم ينس من فيها من العلماء والأدباء الذين جالسهم وبادلهم أطراف الحديث فى العلم والأدب وقد وصل من دمشق إلى حلب.

ياقوت الحموى بحلب :

تحدث ياقوت الحموى عن حلب فى كتابه (معجم البلدان) فقال " حلب مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات طيبة الهواء صحيحة الأديم والماء ويغلب على هذه اللفظة (حلب) أن لها أصل فى العبرانية أو السريانية (هما لغتان) لأن كثيراً من كلام أهلها يشبه كلام العرب لا يفارقه إلا بعجمة يسيرة كقولهم كهنم فى جهنم ، ويوجد بها جامع وست كنائس ، وبيمارستان (مستشفى صغير) ، والفقهاء يفتون على مذهب الإمامية ولأهلها عناية بإصلاح أنفسهم وتنمية واستثمار أموالهم فقل ما ترى من نشئها من لم يتقبل أخلاق آبائه وقد التقى فيها ياقوت ببعض العلماء الذين كان لهم الأثر فى حياته العلمية فقد أفاد ياقوت منهم الكثير ومنهم (أبو محمد الشاطبى ت : ٥٩٠ هـ) ، وهو إمام القراء وقد كان ضريراً ولد بالشاطبية بالأندلس وتوفى بمصر ، وكان عالما بالحديث والتفسير واللغة فهو صاحب كتاب حرز الأمان قال عنه الزركلى أنه مطبوع وهو صاحب القصيدة التى تعرف بالشاطبية فى القراءات ويقول عنه ابن خلكان : كان إذا قرئ عليه صحيح البخارى ومسلم والموطأ تصحح النسخ من حفظه (١).

ومما سبق لاحظ الباحث أن ياقوت الحموى وصل إلى حلب وهناك حرص على الالتقاء بالعلماء ، وحاول ياقوت عدم إذاعة ما حدث منه بدمشق حتى لا يحدث له مالا تحمد عقباه ،وبحلب وجد ياقوت رواجاً تجارياً فأهل حلب أكثرهم من التجار ورواجاً علمياً

(١) معجم البلدان ، ٣٢٤/٢ ومعجم الأدباء ، ٦٢/٤ والزركلى ، مرجع سابق ، ١٨٠/٥ وابن تغرى بردى ، مرجع سابق ، ٥٨/٧ وعمر رضا كحالة ، مرجع سابق ، ١١٠/٨ وابن العماد ، شذرات الذهب ، ٣٠١/٤ والصفدى نكت الهميان ، ص ٢٢٨ .

لالتقائه ببعض العلماء النوابغ مما كان له الأثر الإيجابى فى حياة ياقوت العلمية والاقتصادية ، ومع خروج ياقوت من حلب اتجه فى رحلته إلى الموصل فلم تطل إقامته بحلب.

ياقوت الحموى بالموصل :

ذكر ياقوت أنه رحل إلى الموصل فرارمما حدث منه بدمشق ولسماعه عن العلماء الأجلاء بالموصل فقد التقى ياقوت ببعض هؤلاء العلماء ومنهم (أبو زكريا بن الدهان البغدادى ، ت : ٦١٦ هـ وقد اشتغل ابن الدهان بالأدب وعلوم الدين والتصوف واتصل بخدمة القاهر صاحب الموصل) (١)

ولاحظ الباحث من خلال البحث فى أمهات الكتب أنه لا يوجد مؤلف لابن الدهان غير هذه الأبيات التى مدح بها صاحب الموصل وانتقل ياقوت من الموصل مسرعاً دون المرور على بغداد تحاشياً للرحلة الانهزامية وخوفاً من العلوى الذى كان قد ناظره فى سوق دمشق لأنه كان بغدادياً وخشى ياقوت أن يذاع عنه ببغداد ما صدر منه بدمشق فيقتل ومع خروجه من الموصل وصل إلى إربل ويقول عنها ياقوت هى قلعة حصينة ومدينة كبيرة فى فضاء من الأرض واسع وبها أسواق ومنازل وجامع للصلاة وهى شبيه بحلب يبلغ طولها ٦٩,٥ وعرضها ٣٥٠٥° وتعد إربل من مدن الموصل وبينهما مسيرة يومين – وقد كانت الإفادة العلمية التى حصل عليها ياقوت فى إربل قليلة لقلة العلماء الذين التقى بهم هناك فيقول دخلتها فلم أر فيها من ينسب إلى فضل غير (أبى البركات بن المستوفى الأربلى ، ت : ٦٣٧هـ ، وقد كان من العلماء بالحديث واللغة والأدب ، وقد ذكر له الزركلى مؤلف تاريخ إربل وقال أنه مخطوط المجلد الثانى منه وقد حققه الآن سامى الصفار

(١) معجم الأدباء ، ٦٢٣/٥ وأنظره فى : الزركلى ، مرجع سابق ، ١٤/٨/ ، وابن شاكر ، مرجع سابق ، ١٠٩/١ والسيوطى ، بغية الوعاة فى طبقات النحويين واللغة – الجزء الأول ، تحقيق / محمد أبى فضل إبراهيم (مطبعة عيسى الحلبى ، ١٩٦٤م) ص ٤١٢

والمجلد الرابع منه فى شستريتى رقم (٤٠٩٨) وهو آخر أجزائه وله ديوان شعر [١] ومن العلماء الذين ينسبون إلى إربل جماعة من أهل العلم والحديث منهم (أبو أحمد الشهرزورى الشيبانى الإربلى ت : ٤٨٩هـ بالموصل "[٢]

ياقوت الحموى فى خراسان :

بعد أن قضى ياقوت مدة فى الموصل حصل فيها الكثير من العلم رحل ياقوت إلى خراسان فقد سمع عن علمائها الكثير بجانب اهتمامه بتنوع تجارته التى أراد أن يوزعها هناك بالإضافة إلى جمع الكتب وتحصيل الفوائد والمعلومات وقد تنقل ياقوت بين مدن نيسابور وخراسان حيث التقى بالأدباء وأهل العلم واللغة يأخذ منهم وينقل عنهم ولقد أثرت هذه البلاد فى حياة ياقوت العلمية ، ويظهر الجانب التعليمى والأدبى الذى حصل عليه من خلال إقامته بنيسابور فى اطلاعه على بعض كتب العلماء ومن أهمها كتاب "وشاح دمية القصر ولقاح روضة العصر الذى جمع فيه أبو الحسن البيهقى ت : ٥٦٥هـ أشعار أهل عصره وقد أطلق عليه الزركلى كتاب تتمة دمية القصر وكان لذلك أثره التعليمى على حياة ياقوت الحموى.

لاحظ الباحث أن هذه التنقلات والرحلات التى عاشها ياقوت كان لها أثرها فى حياته الاجتماعية ، ولذا لم يقاس ياقوت التجارب العاطفية فى حياته غير هذه التجربة التى شهدتها نيسابور عند شرائه جارية تزكية صادفت من نفسه محلاً كريماً من الحب والعاطفة غير أن ياقوت أبطر هذه النعمة واستخفها فباع هذه الجارية متحججاً بضيق ذات اليد الأمر الذى جعله لا يستطيع الإقامة والاستقرار بنيسابور بل أنه امتنع عن الأكل والشرب حتى أشرف على الهلاك والموت ، وحينما حاول أن يستردها لم يستطع لأن الذى اشتراها كان غنياً فامتنع أن يبيعها مرة أخرى إلى ياقوت [٣]

---

(١) معجم البلدان ، ١٦٧/١ .والزركلى ، مرجع سابق ، ٢٦٩/٥ والسيوطى ، بغية الوعاة ، ٢/ ٣٨٤ ابن خلكان ، مرجع سابق ، ٣٥٨/١

(٢) معجم البلدان ، ١٦٩/١

(٣) معجم الأدباء ، ١٢٩/٤ والسيد محمد ديب ، مرجع سابق ، ص ٤٧ والزركلى ، مرجع سابق ، ٢٩٠/٤ وحاجى خليفة ، مرجع سابق ، ٢٠١١/٢

ويذكر ياقوت خراسان* فى كتابه (معجم البلدان بقوله هى بلاد واسعة أول حدودها مما يلى العراق وآخر حدودها مما يلى الهند وأورد عنها الكثير من الروايات فى فضلها وبنائها " [1] ومما يدل على فضلها على ياقوت من حيث الجانب التعليمى والأدبى كثرة علمائها ، الذين تتلمذ لهم تلمذة مباشرة أو غير مباشرة فإليها ينسب كل من أهل العلم وفرسانه وسادته وأعيانه ومنهم (البخارى : ٢٥٦هـ) وذكر له الزركلى الجامع الصحيح وقال مطبوع وهو ما يعرف بصحيح البخارى ، وإليها ينسب أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى ت : ٢٦١هـ ، صاحب صحيح مسلم قال الزركلى إنه مطبوع وجمع فيه اثنى عشر ألف حديث كتبها فى ١٥ سنة ، ومن هؤلاء العلماء (أبو عيسى الترمذى ت : ٢٧٩هـ صاحب الجامع الصحيح قال الزركلى إنه مطبوع يعرف باسم صحيح الترمذى فى الحديث يقع فى مجلدين وإليها ينسب (أحمد بن حنبل ت : ٢٤١ هـ صاحب المسند قال الزركلى إنه مطبوع يقع فى ستة مجلدات يحتوى على ثلاثين ألف حديث ومنهم (إسحاق بن راهوية ت : ٢٣٨ هـ طاف البلاد لجمع الحديث وأخذ عنه الإمام أحمد بن حنبل والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى وهو صاحب المسند قال الزركلى مخطوط منه الجزء الرابع فى دار الكتب ومن هؤلاء العلماء (أبى حامد الغزالى ت : ٥٠٥هـ صاحب كتاب إحياء علوم الدين قال الزركلى هو مطبوع فى أربع مجلدات ، ومنهم (أبو المعالى الجوينى ت : ٤٧٨ هـ . أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعى وهو صاحب كتاب العقيدة النظامية فى الأركان الإسلامية قال الزركلى إنه مطبوع ومنهم (الحاكم النيسابورى ت : ٤٠٥هـ وغيرهم الكثير من أهل الحديث والفقه ، ومن علماء الزهد والأدب (أبو الحسن الجوهرى ت : ٤١٩هـ له كتاب الاستبصار فى الاعتقادات ومن هؤلاء العلماء (عبد الله بن المبارك ت : ١٨١ هـ له كتاب الرقائق قال الزركلى إنه مخطوط

* خراسان : تعنى أوزبكستان حاليا والزركلى ، مرجع سابق ، ١٨٥/٥

(١) معجم البلدان ، ٤٠١/٢ .

فى مجلد واحد ، ونذكر من أهل الأدب والنظم والنثر الذين يصعب حصرهم (أبو إبراهيم الفارابى الأديب ت : ٣٥٠ هـ صاحب كتاب ديوان الأدب عرفه بقوله : هو ميزان اللغة ومعيار الكلام قال الزركلى وهو مخطوط رأيت نسخة منه فى خالدية القدس كتبت سنة ٥٨٨هـ ونسخة أخرى كتبت ٦١١هـ فى حلب رأيتها فى مكتبة مغنيسا برقم ٢٨٢٤ (١) ومن هؤلاء العلماء فى الأدب وينسبون إلى خراسان (عطاء الخراسانى) وهو عطاء بن مسلم الخرسانى ت : ١٣٥هـ وهو عالم بالتفسير وقد صنف فى ذلك كتاب التفسير وقد ذكر الزركلى أن منه أوراقاً مخطوطة وله كتاب الناسخ والمنسوخ ويذكر الزركلى أن منه جزءا مخطوطاً وكلاهما فى الظاهرية " (٢)

ومن هؤلاء العلماء (أبو عبد الرحمن حاتم بن يوسف الأصم وقال الزركلى : هو حاتم بن عنوان : ت ٢٣٧هـ) ولاحظ الباحث أن ما ذكره ياقوت أقرب إلى الصواب لأنه شاهد قبر حاتم الأصم ،وقرأ ما كتب على قبره وذكر أنه تلميذ شفيق البلخى غير أن الزركلى تشابه عليه فذكر أن حاتم بن عنوان من أهل بلخ لذا كان رأى ياقوت هو الأصح وهو ما يقره البحث هنا وقد اشتهر (حاتم الأصم) بالزهد والتقشف وله كلام مدون فى الزهد والحكم " (٣)

ومما سبق لاحظ الباحث أن ياقوت أفاد الكثير من هذه الرحلة العلمية التجارية إلى خراسان ، فقد التقى فيها بالكثير من العلماء كل فى مجال تخصصه من العلوم وقد ساعد ذلك كله ياقوت الحموى فى اتساع مداركه العلمية وقد ظهر ذلك بكثرة فى مؤلفاته العلمية التى تزخر بالكثير من العلوم المتنوعة بين الآيات القرآنية التى كان يكثر

---

(١) معجم البلدان ، ٤٠٤/٢
والزركلى،مرجع سابق،٣٢٢/٢٢١،٦/٢٤،٧/٦ ، ٢٩٢/١،٢٠٣/١ ، ٢٢/٧ ، ١٦٠/٤ ، ٥/٨ ، ٢٩٣/١١٥،١/٤، وعمر رضا كحالة ، مرجع سابق ،١٨٤/٢٦٦،٦/٩٦،١١/١٠٤،٢/١١.

(٢) معجم البلدان ، ٤٠٥/٢ ومعجم الأدباء ، ١٢٩/٤
والزركلى ، مرجع سابق : ٢٣٥/٤ وابن العماد ، مرجع سابق ، ١٩٢/١ والذهبى ، مرجع سابق ، ١ / ١٨٢

(٣) معجم البلدان ، ٤٠٥/٢ والزركلى ، مرجع سابق ، ١٥٢/٢

الاستشهاد بها فى كتاباته وبين الأحاديث النبوية التى كان يتجلد بها أمام قسوة الدهر وقد عد ياقوت رحلته إلى خراسان بأنها كانت فى غفلة من الدهر لأنه اعتاد من الدهر القسوة والظلمة فلم يشرف له نور إلا فى هذه الرحلة العلمية وقد قرأ ياقوت أثناء إقامته بخراسان الكثير من كتب التفسير والفقه والأدب والزهد والحكم والأمثال بل إنه جمع الكثير منها بين يديه ومن مدن خراسان التى ذكرها ياقوت وأفاض الحديث عنها.

مرو (الشاهجان) :

وهذه من أشهر مدن خراسان ومعنى مرو فى اللغة العربية الحجارة البيض التى تستخدم فى ضرب القداح غير أن ياقوت ذكر أنه لم ير بها من هذه الحجارة شيئا وأما الشاهجان فهى فارسية معناها : نفس السلطان لأن الجان هى النفس أو الروح والشاه هو السلطان وقد استشهد ياقوت على فضل مدينة مرو ببعض القصص التى أثرت عن النبى(ﷺ) مع أصحابه ، ومساحتها كما ذكرها ياقوت تبلغ طولها ٧٧° وعرضها أربعون درجة تحت ثمانى عشرة درجة من السرطان ، وهذا ما يثبت بحق جغرافية ياقوت فهو عالم جغرافى يتحدث عن مواقع هذه المدن من حيث الموقع الفلكى وهو ما يقصد به: موقع المدينة بالنسبة لخطوط الطول ودوائر العرض وقد عاش ياقوت بهذه المدينة حياة سعيدة هادئة فأهلها يغلب عليهم الكرم ولين الجانب وحسن العشرة وهى بلدة عامرة بخزائن الكتب التى يحتاج إليها ياقوت الحموى (حتى يمكنه من خلالها التعرف على علوم الأوائل) ومن أهم هذه المعالم جامعان للحنفية والشافعية وبها الكثير من كتب الأصول المتقنة وفيها عشر خزائن : خزانتان إحداهما يقال لها العزيزية وبها اثنا عشر ألف مجلداً أوما يقاربها كما وصفها ياقوت فى كتابه (معجم البلدان) ، والأخرى يقال لها الكمالية يقول ياقوت لا أدرى إلى من تنسب وبها خزانة شرف الملك (أبى سعيد المستوفى ت : ٤٩٤هـ) وهى توجد بمدرسته ، والرابعة من هذه الخزائن لنظام الملك (الحسن بن إسحاق بمدرسته) وخزانة المدرسة العميدية ، وخزانة لمجد الملك أحد الوزراء المتأخرين

بها ، والخزانة الخانوتية فى مدرستها ، والخزانة الضيمرية ، وخزانتان للسماعنين ، يقول ياقوت الحموى كان لا يفارق منزلى منها مائتا مجلد أو أكثر بغير رهن أو ضمان ولذا طابت الإقامة لياقوت فى هذه البلدة "(١)

وبجانب تلك الخزائن التى تزخر بها مدينة مرو فإنها أنجبت الكثير من العلماء فإليها ينسب (أبو بكر القفال المروزى ت : ٤١٧ هـ وهو أحد أركان مذهب الشافعى وتخرج به جماعة وانتشر علمه فى الآفاق ، ومن هؤلاء العلماء (أبو إسحاق المروزى ت : ٣٤٠هـ بمصر) وانتهت إليه رياسة الشافعية بالعراق بعد ابن سريج وله من التصانيف : شرح مختصر المزنى وهذا الكتاب (مختصر المزنى) هو أحد الكتب الخمس المشهورة بين الشافعية التى يتداولونها أكثر تداول وقد كان سائراً فى كل الأمصار وهو للشيخ الإمام (إسماعيل بن يحيى المزنى ت : ٢٦٤هـ وهو أول من صنف فى مذهب الشافعى " (٢)

وقد تحدث ياقوت الحموى عن مرو الشاهجان فى رسالته التى كتبها للقفطى وهو (أبو الحسن الشيبانى ويغلب عليه لقب جمال الدين القفطى ت : ٦٤٦هـ وهو وزير مؤرخ من الكتاب ، كان جماعا للكتب حتى أنه جمع من الكتب مكتبة تساوى خمسين ألف دينار ، لا يحب من الدنيا سواها ولا زوجة له ولا ولد فقد تشابه حالة بحال ياقوت الأمر الذى جعل ياقوت يكتب إليه بهذه الرسالة ، ومن الكتب التى صنفها القفطى كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء ذكر الزركلى أنه مطبوع مختصرا ، وله كتاب انباه الرواة على أنباه النحاة ذكر الزركلى أنه مطبوع فى ستة أجزاء " (٣) ، وفى هذه الرسالة كتب ياقوت جانباً كبيراً عن مرو الشاهجان فتحدث عن كرم أهلها ، وما لقيه من كرمهم

---

(١) معجم البلدان ، ٥ /١٣٢ –١٣٤والسيد محمد ديب ، مرجع سابق ، ص ٥٠ وابن خلكان ، مرجع سابق ، ص ٥٠ والزركلى ، مرجع سابق ، ١١١/٧.

(٢) معجم البلدان ، ١٣٦/٥ وعمر رضا كحالة ، مرجع سابق ، ٢٦/٦والزركلى ، مرجع سابق ، ١١١/٧ ، ٢٨/١ وابن العماد ، مرجع سابق ، ٣٥٥/٢ وحاجى خليفة ، مرجع سابق ، ١٦٣٥/٢ .

(٣) القفطى ، مرجع سابق٤ /٢٣٧والزركلى ، مرجع سابق ، ٣٣/٥ والأدفوى ، الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد ، تحقيق د / سعد محمد حسن (القاهرة : الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦م) ، ٢٣٧

وتقديرهم للعلم والعلماء، وفضل أهل العلم بها وهذه المكتبات التى اغتنم منها الكثير من الكتب دون الحاجة إلى رهن أو ضمان ثم تحدث ياقوت عما أصاب هذه المدينة من الخراب والدمار من جراء إغارات التتار عليها بعد ما ظن ياقوت أنه لا مقام له إلا بهذه المدينة وأنه لا محيص عنها إلى أن يجاور الترب وجعل ينشد نفسه هذه الأبيات فيقول:

إذا ما الدهر بيتنى بجيش ... طليعته اغتمام واغتراب

شننت عليه من جهتى كمينا ... أميراه الذبالة والكتاب

وبت أنص من شيم الليالى ... عجائب من حقائقها ارتياب

بها أجلو همومى مستريحا ... كما جلى همومهم الشراب (١)

ومن ظاهر هذه الأبيات نرى أن ياقوت أراد أن يحارب الدهر فى قسوته وظلمته له من الغربة وترك الأهل والبلد، والغم الذى يعتريه فى تنقلاته بجيش يختلف عن الجيش المعهود فجيش ياقوت مكون من الذبالة: آلة إضاءة عرفت فى هذا الوقت وبجانبها الكتاب، فكان جيش ياقوت هو القراءة فى أمهات الكتب، بل أنه يقول بالقراءة أزيل همومى مع راحة لبدنى، كما يزيل هموم هؤلاء المترنحين الشراب والسكر.

واستمر ياقوت الحموى فى وصف هذه المدينة (مرو) بعبارات وجمل مسجوعة الألفاظ منمقة الوصف، ثم يذكر ياقوت بعض الآيات القرآنية مستشهدا بأن هذه الجنان لم يورثها الله (عزوجل) لأحد من بعدهم فيذكر قوله تعالى:

"كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾" (٢)

ونرى أن هذه الآيات مناسبة للاستشهاد بها فى هذا الموقف فقد نزلت هذه الآيات فى بنى إسرائيل وخروجهم من مصر (٣) وقد يكون ياقوت ذكر هذه الآيات لمطابقة ما

---

(١) معجم الأدباء، ١٩/١

(٢) سورة الدخان: من الاية ٢٦.

(٣) المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، المنتخب فى تفسير القرآن الكريم، الطبعة الثالثة عشر، ١٩٨٨م ص ٧٣٣.

حدث مع بنى إسرائيل فى خروجهم وما حدث مع أهل مرو فى خروجهم قهراً أمام عدوان التتار الغاشم وهو ما يميل إليه الباحث .

ثم يواصل ياقوت رسالته فيتحدث عن الخراب والدمار الذى شهدته هذه البلاد إثر غارات التتار عليها من قتل العلماء ، وإحراق المكتبات لذا وصفهم ياقوت بأنهم أهل كفر وإلحاد ، فأصبحت قصور مرو كالمحو من السطور ، وأصبحت مأوى الغربان ، تتجاوب فى نواحيها البوم ، وتتناوح فى أراجيها الريح السموم : وهى الريح الحارة تهب غالبا على مصر فى شهر مايو (١) واقتصر الباحث على ذكر مصر من بين المناطق التى تهب عليها هذه الرياح لأننا نشاهدها ونقاسيها .

ويقول الله عز وجل

" وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ " (٢)

وفى الجغرافيا هى ريح محلية ساخنة جافة تثير الأتربة ، ومنها رياح الخماسين فى مصر والسودان ، ويستوحش ياقوت فيها الأنيس فيقول :

كأن لم يكن فيها أوانس كالدمى ... وأقيال ملك فى بسالتهم أسد

فمن حاتم فى جوده وابن مامة ... ومن أحنف إن عد حلم ومن سعد

تعادى بهم طرف الزمان فأصبحوا ... لنا عبرة تدمى الحشا ولمن بعد (٣)

ولاحظ الباحث أن ظاهر أبيات ياقوت يقول فيها أن مدينة مرو أصبحت من الخراب الذى لحقها من جراء إغارات التتار وكأنها لم يوجد بها قبل ذلك هذه الدمى جمع دمية : وهى الصورة الممثلة من العاج والتى يضرب بها المثل فى الحسن والجمال التى يستأنس بها أهل مرو ونزلائها وكان ملوك اليمن يتخذون هذه الصور فى أماكن إقامتهم

---

(١) ابن خلكان ، مرجع سابق ، ١٣٥/٦.

(٢) سورة الواقعة : الآيات ٤١ : ٤٣.

(٣) معجم الأدباء ، ١٩،٢٠/١ وابن خلكان ، مرجع سابق ، ١٣٥/٦ .

ويجعلون فى مقدمة هذه الصور صورة الأسد ، ثم يصف ياقوت كرم أهل مرو فإنهم كانوا فى جود حاتم الطائى وفى حلم أحنف وسعد ، هذه الصور وصفات أهل هذه المدينة أصبحت عبرة لأنهم غابوا غير أن هذه العبرة تدمى القلب حزنا ، حينما يتذكرها الإنسان

وذكر ياقوت أن حادثة إغارة التتار على مرو كانت من الحوادث التى تقصم الظهر وتهدم العمر ، وتوهى (تصيب وتضعف) الجلد ، وتضاعف الحزن المكتوم ، وتشيب الوليد وتختار من الإنسان أفضله ولو كان عقله ، وتسود القلب ، وتذهل العقل ، وقد أثر ذلك كله على صاحبنا ياقوت لأنه لم يأمن على نفسه أمام هذا العدو ، حتى أنه أشرف أكثر من مرة على الموت وقد ظن نفسه أنه من أهل البوار فقد أشرف على الهلاك فى الكثير من أسفاره وتنقلاته وكان يذكر نفسه دائما بقوله تعالى

" .... لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾"(١)

ووصف ياقوت أهل مرو بأنهم من الشهداء لدفاعهم عن وطنهم وكان يذكر دائما قوله تعالى :

"... وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾" (٢).

وظل ياقوت الحموى يقاسى خطوب الدهر ويعاتبه أحيانا فيقول :

تنكر لى دهرى ولم يدر أننى أعز وأحداث الزمان تهون
وبات يرينى الخطب كيف اعتداؤه وبت أريه الصبر كيف يكون (٣)

فكأنه يقول أن الدهر معى فى محاربة مستمرة كلما مر بى حدث أنكر على وزيدنى بحدث آخر ، ولم يعلم أنى أتجلد أمام هذه الأحداث وتلك الخطوب متخذاً من الصبر حاجزاً يفصل بينى وبين تلك الأحداث.

---

(١) سورة الكهف : من الآية ٦٢.
(٢) سورة البقرة : من الآية ٢١٦.
(٣) ابن خلكان ، مرجع سابق ، ١٣٧/٦ .

ومما سبق لاحظ الباحث أن الإقامة التى حظى بها ياقوت فى مدينة مرو أضافت الكثير إلى نشاطه العلمى من خلال وجوده بين كتب العلماء التى كانت تزخر بها مدينة مرو ، وحصوله على هذه الكتب دون ضمان أو رهن ، بل واصطحابها معه إلى منزله ناهيك عن الموقع الجغرافى الذى كان له عظيم الأثر فى نفس ياقوت بالإضافة إلى صفات أهل مرو من الكرم والسخاء وحب العلم وأهله ، الأمر الذى أتاح لياقوت ممارسة نشاطه العلمى لتأليف الكتب وتصنيف العلوم حتى أنه ذكر أن الكثير مما جمعه كتاب معجم البلدان كان أثناء إقامته بمدينة مرو ولذا كانت إغارة التتار على مدينة مرو من الأحداث العظام التى أثرت فى نفس ياقوت الكثير لأنها كانت سبباً فى إضاعة الكثير من أمهات الكتب التى أفاد منها ، فقد قضى التتار على هذه الثروة العلمية عن طريق الإحراق تارة وأخرى عن طريق السلب والنهب ، وأمام جحافل التتار وجيشهم كثير العدد والعدة وكان على ياقوت أن يغادر مدينة مرو إلى مدينة أخرى يجد فيها العوض عن مدينة مرو فقد اضطر ياقوت الحموى إلى ترك مدينة مرو حيث قابل فيها مخاوف كثيرة من التتار بمعاملاتهم الوحشية ، للعلماء والمكتبات التى يفيد منها العلماء بل وطلاب العلم ومع ما خرجت مدينة مرو من الأعيان ، وعلماء الدين والأركان ، ما لم تخرج مدينة مثلهم ، إلا أن ياقوت غادرها مكرهاً مجبراً على ذلك مبتعداً عن وجود التتار فصار بعدها إلى خوارزم .

ياقوت الحموى فى خوارزم :

حرص ياقوت على الرحلة إلى الخوارزم لما سمعه عن فضل علمائها فقد كانت من أشهر مدن الشرق فى ذلك الوقت تخريجاً للعلماء وبها نشأت حركة علمية وأدبية واسعة وقد وصل إليها ياقوت فى رمضان سنة ٦١٦ هـ وتحدث ياقوت عن أهم المعالم التضاريسية التى شاهدها هناك فيصف نهر جيحون وهو متجمد فيقول :" وقد شاهدت نهر جيحون وهو متجمد وركبت فيه فكان الناس إذا استحكم جمود هذا النهر عبرت عليه القوافل

والعجل والبقر ولا يبقى بينه وبين الأرض فرق حتى رأيت الغبار يتطاير عليه كما يكون فى البوادى ويبقى على ذلك نحو شهرين " (١)

ومنه لاحظ الباحث أن ياقوت كان عالماً فى الجغرافيا يصف بعض المعالم التضاريسية التى يشاهدها ولا أرى إلا أن ياقوت كان عالماً بليغاً فقد بالغ فى وصف هذا النهر كونه جعل النهر المتجمد مثل الطريق يتطاير عنه الغبار وقد استعان ياقوت بالمجاز اللغوى فى ذلك فشبه قطع الثلج الصغيرة عند تطايرها من حوافر الحيوانات بالغبار المتطاير من هذه الحوافز عند مرورها على الأرض الجافة .

علماء خوارزم الذين أفاد منهم ياقوت :

تمت الإشارة فيما سبق إلى أن خوارزم كانت من أشهر المدن فى ذلك الوقت تخريجاً للعلماء ومن أشهر العلماء الذين أفاد منهم ياقوت (أبو يعقوب السكاكى الخوارزمى ت : ٦٢٦ هـ) ومن هؤلاء العلماء أيضا (يوسف بن أحمد نجم الدين الخوارزمى ت : ٦٣٤هـ) ومنهم (مؤيد الدين الخوارزمى كان حيا : ٦٢٠ هـ ومن مؤلفاته شرح نوابغ الكلم للزمخشرى ، ومنهم (أبو المؤيد الخوارزمى ت : ٥٦٨هـ) صاحب كتاب : مناقب الإمام الأعظم أبى حنيفة ، قال الزركلى إنه مطبوع ، وقد أخذ العربية عن الزمخشرى بخوارزم ،ومن العلماء الذين اهتموا بالدراسات العقلية فى خوارزم (أبى على الجغمينى الخوارزمى ت: ٦١٨هـ) من كتبه كتاب الملخص فى علم الهيئة قال الزركلى إنه مطبوع وترجم إلى الألمانية . (٢)

ومن هؤلاء العلماء (أبو عبد الله الخوارزمى ت ٢٣٢هـ) الذى كان ينعت بالأستاذ فقد عهد إليه المأمون بجمع الكتب اليونانية وترجمتها ، فاختصر كتاب المجسطى لبطليموس وسماه (السند هند) أى الدهر الداهر ، فكان هذا الكتاب أساساً

(١) معجم البلدان ، ١٩٤/٢-١٩٦.
(٢) عمر رضا كحالة ، مرجع سابق ، ٢٨٢/١٣ ، ٢٦٩/١٣، ٥٥/١٣ والزركلى ، مرجع سابق ، ٣٣٣/٧، ١٨١/٧ والقفطى ، مرجع سابق ، ٢٣٢/٣ وحاجى خليفة ، مرجع سابق ، ١٩٧٨/٢ ، ١٨٣٧/٢ ، ١٨١٩/٢

لعلم الفلك بعد الإسلام ، وله كتاب الجبر والمقابلة قال الزركلى إنه ترجم إلى اللاتينية ثم إلى الانجليزية ، ونشر بهما ، وطبع بالعربية ، وله كتاب وصف أفريقيا قال الزركلى إنه مطبوع(١) .

وقد أفاد ياقوت الحموى أثناء إقامته بخوارزم بالكثير من علوم هؤلاء العلماء سواء أكان هؤلاء الذين صنفوا فى علوم الفقه والعربية ، أم هؤلاء الذين صنفوا فى العلوم العقلية غير أن الفترة التى قضاها ياقوت هناك كانت قصيرة ، لم يسعد فيها ياقوت بكثرة التزود من هذه العلوم ، فالزمن لم يطب له حتى يهنأ بالإقامة الطويلة بين هؤلاء العلماء حتى يحصل منهم على الكثير وكان ذلك بسبب " سوء العلاقة التى نتجت بين الدولة الخوارزمية وبين المغول الأمر الذى من خلاله تقدم جنكيز خان من بلد إسلامى إلى آخر مستخدما الهجوم العنيف والعدوان الشديد ، فتراجع الخوارزميون أمامه ، مما اضطر ياقوت الحموى إلى الرحيل عن خوارزم ، وقد قص ياقوت الضائقة التى شاهدها أثناء خروجه من خوارزم والرحيل عنها ، ما كان يكل عن شرحه إذا ذكره ، وكان ذلك فى سنة ٦١٦ هـ ، ومن الأمور التى جعلت ياقوت فى ضائقة أثناء خروجه من خوارزم وعودته إلى بعض مدن العراق أنه مر بخراسان ، ورأى آثار الدمار والخراب فى المدن الإسلامية من جراء الهجوم التتارى على هذه المدن ، مما جعله لا يستطيع الإقامة مرة أخرى بهذه المدن التى عز على نفسه أن يشاهدها على هذه الحالة وقد كانت سببا فى تقدمه العلمى ونشاطه الاقتصادى من خلال تجارته بها ، وقد تحدث ياقوت عما شاهده بخوارزم والمدن الإسلامية فى رسالته التى كتبها للقفطى وقد أشرنا إلى مقتطفات منها ." (٢)

وقد أضاف ياقوت برحلته إلى إربل الكثير إلى ميراثه التربوى ، وحصيلته العلمية فقد كانت الإقامة التى حظى بها ياقوت فى إربل أتاح له فرصة الالتقاء بالعلماء ، غير أنه كانوا من القلة بحيث أن ياقوت لم يذكر منهم سوى المستوفى .

---

(١) الزركلى ، مرجع سابق ، ١١٦/٧ وحاجى خليفة ، مرجع سابق ، ٥٧٩/١.

(٢)أبو الفتوح التوانسى ، ياقوت الحموى الجغرافى الرحالة الأديب ، مرجع سابق ، ص ٨٧ وابن خلكان ، مرجع سابق ، ١٢٨/٦ ومعجم البلدان ، مرجع سابق ، ١٩٤/٢.

ياقوت الحموى ببغداد :

رحل ياقوت عن إربل متجها إلى بغداد وهناك التقى ببعض علمائها ، فساهموا فى بنائه التربوى التعليمى وقد ذكر ياقوت من بينهم (أبى طالب الكرخى ت : ٥٨٥هـ) ويقول ياقوت : أدركت زمانه ولقبت بالبغدادى أوانه ، إلا أننى لم أرَ لصغر السن حينئذ والاشتغال فى ذلك الوقت بغير طلب العلم ، وقد كان الكرخى إماما زاهدا فاضلا ،أوحد زمانه فى حسن الخط ، وقد صار فى ذلك على طريقة (على بن البواب ت ٤٢٣هـ وهو خطاط مشهور، من أهل بغداد ، نسخ القرآن بيده ٦٤ مرة ، لا تزال بعض هذه النسخ محفوظة فى مكتبة بالقسطنطينية كما ذكر الزركلى"[(١)]

وقد ذكر ذلك ياقوت فى رسالته التى كتبها للقفطى ، وأوضح فيها رحلاته وتنقلاته والإفادة العلمية التى حظى بها ياقوت أثناء هذه الرحلات

عودة ياقوت الحموى إلى حلب :

وصل ياقوت إلى حلب بعد أن استحالت الإقامة فى المدن التى رحل إليها ، لما وقع من التتار حيال هذه المدن ، وحلب ليست جديدة بالنسبة له ، فقد عاش بها بعد ذلك واختارها ياقوت حتى يقضى بها الفترة الباقية من عمره ، وذلك لما بينه وبين وزيرها الذى طلب منه ياقوت أن يساعده فى الوصول إلى حلب ، ولذا كان ياقوت لا يفارق حلب إلا إلى زيارة بعض الأماكن المقدسة والعودة إليها ، فقد زار المسجد الأقصى فى ٦٢٤هـ وزار أطراف العراق ومصر ، وعاد إلى حلب حيث مجالس العلماء والأدباء ، التى يتزود منها."[(٢)] ،فقد جالس ياقوت الحموى بحلب بعض علمائها ومنهم (الواسطى ت :٦٢٦هـ وقد كان عالما بالعربية فى حلب ، له من الكتب كتاب شرح المقامات الحريرية قال

---

(١)الزركلى ، مرجع سابق ، ٣١/٥ ومعجم البلدان ، ١٣٨/١ وابن خلكان ، مرجع سابق ، ٣٤٥/١ ومعجم الأدباء، ٣٩/٣ وابن كثير ، البداية والنهاية ، الجزء الثانى عشر ، (القاهرة : دار الفكر العربى ، د.ت) ص ١٤. وابن الجوزى المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق د/ حسن عيسى الحكيم ، الجزء الثامن ، الطبعة الأولى (بيروت: عالم الكتب ، ١٩٨٥م) ، ص ١٠ .

(٢) معجم الأدباء ، ٦٢٠/٤ – ٦٢٦ وابن خلكان ، مرجع سابق ، ١٣٨/٦

الزركلى إنه مخطوط فى مكتبة عارف حكمت تحت رقم (٩٧أدب) وله كتاب خطب أورد ياقوت منه نماذج حسنة ."(١)

ويقول الواسطى :أنشدنا ياقوت لنفسه فى ذى الحجة ٦٢٠ هجرية بحلب أبياتا فقال :

أرى بغضى على الجهـــلاء داء ... يموت ببغض القلب العليل
فهم موتى النفوس بغير دفـــن ... وأحياء عـــزيـــزهـم ذليـل
يغطون السماء بكـــل كـــف ... لها فى الطول تقصير طويل
وتبـــدو الطلاقة من وجـــوه ... كما يبدو لك الحجر الثقيـل
إذا قـاموا لمجـــد أقعدتهـــم ... مســالك مالهـم فيها سبيـل
وإن طلبوا الصعود فمستحيـل ... وإذا لزموا النزول فما يـزول
كذاك السجل فى الدولاب يعلو ... صعوداً والصعـود له نـــزول (٢)

ومن ظاهر الأبيات يبين ياقوت البغض والمقت الذى ينال هؤلاء الجهلاء الذين يصير جهلهم داء فى قلوبهم يموتون به ، وهؤلاء الجهلاء فى حكم الموتى وإن كانوا حياء فإن العزيز منهم بجاهه ، ذليل بجهله ، ولا تجد الطلاقة من ألسنتهم ولكن تراها من وجوههم ، ولا يمكنهم الارتفاع عن مكانتهم ، لان العلم هو الذى يرفع هؤلاء ، ولا يحظون به كما لا ينفك عنهم النزول بالجهل ، فهم مثل السجل (هو الدلو) الملوء بالماء قل أو كثر"(٣) فإن ارتفاعه نزول وتراه واضحاً إذا ارتفع من الخلف هبط ليمتلأ بالماء من الأمام ، ويلاحظ فى ذلك الدعوة الصريحة من ياقوت إلى ترك الجهل وطلب العلم ، فهو الذى يرفع الأقوام ،والجهل يخفض قدرهم ، وإن ارتفعت مكانتهم به .

---

(١) عمر رضا كحالة ، ١١١/٨ والزركلى ، مرجع سابق ،١٨٠/٥ والسيوطى ، مرجع سابق ، ص ٣٨٠ وابن شاكر الكتبى ، مرجع سابق ، ١٢٨/٢
(٢) معجم الأدباء ، ٦٢٧/٤،٦٢٦
(٣) الرازى ، مرجع سابق ،ص ٢٨٧

وقد ظل ياقوت بحلب حتى وافته منيته فى يوم الأحد ، العشرين من رمضان ٦٢٦هـ ، ١٢٢٩م بعد أن وقف كتبه على مسجد الزيدى ، بدرب دينار ببغداد ، وقد سلمها لابن الأثير ، فحملها إلى هناك (١)

عقيدة ياقوت :

من خلال الرسالة التى كتبها ياقوت الحموى إلى الوزير القفطى تبين للباحث أن ياقوت كان ذو عقيدة إسلامية صافية ، متأثراً بالتنشئة الأولى التى نشأ فيها بين يدى مولاه عسكر ، ويتضح ذلك بصورة ة واضحة فى استشهاد ياقوت بالكثير من الآيات القرآنية يؤيد بها كلامه ، والأحاديث النبوية التى يوثق بها بيانه ، وكان يذكر الكثير من قصص الأولياء والصالحين ، وصحابة النبى (ﷺ) ليضرب بهم المثل أثناء تعرضه لكتابة موضوع ما ، واعتقاد ياقوت فى كل الأمور الغيبية المحسوس منها وغيره ، ويبين ذلك أيضا وصفه للتتار بأنهم أهل كفر وإلحاد وضلال ، وما أباده من أسف شديد على تفكك الدولة الإسلامية العربية وانهيارها أمام جحافل التتر ، الملحدة المتبربرة ، وحزنه الدفين على تركه مدينة مرو الزاهرة العامرة بمكتباتها ، وعلمائها الأجلاء وما بهذه المكتبات من كتب ذات قيمة علمية وتربوية استطاعت أن تنسى ياقوت الأهل والأحباب ، والوطن والأصحاب وكانت بمثابة عوض عن إقامة منزل يشعر فيه بالراحة الأبوة .

ويذكر عبد الرحمن حميده فى كتابه (أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم) قوله " وقد رأى سيده التاجر ، الذى لم ينل حظا وافر من التعليم أن يفيد من هذا الحدث النابه (الذكى) بأن يوفر له ذلك ، كى يستعين به فى حساباته ومعاملاته، فأدخله الكتاتيب يتعلم فيها الكتابة ، ونال تعليما إسلاميا جيدا "(٢)

---

(١) ابن خلكان ، مرجع سابق ، ١٣٩/٦

(٢) عبد الرحمن حميده ، مرجع سابق ، ص ٢١٤

ومنه لاحظ الباحث أن ياقوت نشأ من البداية نشأة إسلامية كانت سبباً فى قوة عقيدته الإسلامية ، وذلك جعله فى النهاية يختار ويفضل الآخرة على الدنيا حتى أنه "وقف كتبه على مسجد الزيدى ببغداد"(١) ،وذلك حتى لا تقتصر الإفادة من هذه الكتب على طائفة خاصة بل تعم الإفادة منها ويستطيع أن يطلع على هذه الأعمال وتلك المؤلفات روّاد هذا المسجد ، ونقلت هذه الكتب بعد ذلك إلى مكتبات بغداد حتى تشمل الفائدة أهلها

أخلاق ياقوت الحموى :

جمع ياقوت الحموى الكثير من الصفات الأخلاقية الحميدة ،والتى كان يوصف بها من بين أهل البلدان التى يرحل إليها فقد كان "رقيق العاطفة مرهف الحس ، دؤوب على العمل ، وله نفس ذكية داركة وكان صريحا فى قوله ، لا يداهم ولا يرائى ، يقول ما يؤمن به ويعتقد فيه ،وإن أغضب غيره ،وقد كان فيه صدق العلماء ، وصدق الصادقين من العلماء والرواه ."(٢)

ومن الصفات التى كانت تلازم شخص ياقوت الحموى هى التواضع فى العلم فكان إذا سئل عن شىء ولم يعرفه كان لا يخجل من أن يقول لا أعرف أو لا أعلم فيقول : أما الشعر فقد قلت فيه مع اعترُف بقلة بضاعتى فى الشعر وعلمى بركاكة نظمى ونثرى(٣) وقد وصف ياقوت بأنه لا ينفق إلا على من جبل (طبع) على العلم طبعه ،وعمر بحب الفضل ربعه (داره) فظل للآداب خديناً (حبيباً وصاحباً) ولصحة العقل قريناً (مصاحباً) قد عجنت بالظرافة طينته وسيرت باللطافة سيرته " (٤)

ومما سبق لاحظ الباحث أن ياقوت كان مولعاً بالعلم حريصاً على تحصيله مهما كلفه ذلك من جهد وطاقة ، وكان على درجة من التدين ، وعلى صلة بربه ، وكانت يداه

(١) ابن خلكان،مرجع سابق ، ١٣٩/٦ والزركلى ، مرجع سابق ، ١٣١/٨ وجورجى زيدان ، مرجع سابق ، ٨٨/٣
(٢) السيد محمد ديب ، مرجع سابق ، ص ٥٦
(٣) معجم الأدباء، ٣٦/١
(٤) المرجع السابق، ٣٣/١ .

تجوال بالخير، سباق إلى المعروف، وقد رأيناه يقف كتبه على مسجد الزيدى بالعراق فهو بذلك اشترى آخرته بدنياه قولا وعملا، وقد كان ياقوت معتزّ بنفسه يفتخر على أهل الجهل بأعماله، ويعترف بفضل العلماء الذين سبقوه، عن طريق الاستفادة من أعمالهم وفى كل مؤلف قام بتأليفه، ولذا فقد عاش ياقوت طيلة حياته طالباً للعلم فى مجالس العلماء والأدباء بل كان لا يتكبر على العلماء فكان يرحل إليهم قاطعا البيداء والبحار والأنهار حتى يصل إلى أماكن إقامة هؤلاء العلماء والتعرف على علومهم.

العلماء الذين تتلمذ لهم ياقوت :

من خلال ما تمت الإشارة إليه عن حياة ياقوت تبين أنه عاش حياته بين الأسر فى الصبا، والتجارة والكتابة وجمع الكتب فى الشباب، من مختلف البلدان، وأثر العزلة فى السنوات الأخيرة من عمره لما حدث أمامه من إغارات التتار على البلدان الإسلامية ،وما رأه قد حل بالمدن الإسلامية فقد كانت حياته متقلبة لم يعرف فيها الاستقرار ولم يأنس فيها بالهدوء وراحة البال، كل هذه الظروف لم تتح لياقوت التفرغ بالجلوس إلى الكثرة من العلماء والشيوخ، بل نستطيع أن نقول أن ياقوت اتخذ من الكتاب معلماً أكثر من اعتماده على الشيوخ والعلماء، فقد شغلته الرحلة والتجارة، ونسخ الكتب عن ذلك غير أنه كان إذا حل ببلد وصادق شيخا انتفع بعلمه وحصل منه، ولا يمكنه أن يصادق شيخا غيره لعدم إطالة الإقامة، فالسفر إحدى مصادر المعرفة ،وقد قيل فى السفر سبع فوائد ورغم ذلك كله نستطيع أن نتتبع حياة شيخين تتلمذ لهما ياقوت، وكان لهما أثر فى ثقافته أكثر من غيرهما وهما :

" سالم بن أحمد وهو أبو المرجى التميمى ويغلب عليه لقب المنتخب ت ٦١١هـ" وهو من علماء النحو والعروض، من أهل بغداد ووفاته فيها ،التقى به ياقوت الحموى وقرأ عليه العربية والعروض، من مؤلفاته : كتاب صناعة الشعر وكتاب القوافى والعروض ،وله

أرجوزة فى النحو ، وقد سافر سالم بن أحمد إلى خراسان لسماع صحيح مسلم ،وقد سمعه من المؤيد الطوسى (١)

ويرى الباحث أن ياقوت (شيخنا) قد جانبه الصواب فقد اقتصر فى ترجمته لأستاذه على سطور قليلة ، غير أنه اعترف بأستاذيته له ، وأخذ العلم عليه ، وفى نفس الوقت كان ياقوت قد تترجم فى كتابه (معجم الأدباء) للكثير من العلماء والأدباء ليسوا بهذه المكانة من ياقوت ، ومع ذلك أكثر عنهم الحديث ،وكذلك لم يورد ياقوت لشيخه شيئا من شعره ، ولم يورد أى خبر عن الأحداث التى دارت بينه وبين شيخه ، وذكرياته معه مع أنه تتلمذ على يديه فى العراق.

ومن هؤلاء العلماء السمعانى وهو (أبو سعد السمعانى المروزى) ت :٥٦٢هـ مؤرخ رحالة ، من حفاظ الحديث ،مولده ووفاته بمرو ، لقى العلماء والمحدثين وأخذ عنهم ، وأخذوا عنه ، من مؤلفاته : كتاب الأنساب وهو من أشهر مؤلفاته وقد ذكر الدكتور مصطفى رجب فى كتابه " مع تراثنا التربوى " أن كتاب الأنساب معروف حاليا بين دارسى التاريخ وعلوم التراجم ،ونقل عن ابن خلكان قوله أن هذا الكتاب كان فى نحو ثمانى مجلدات ثم اختصره ابن الأثير الجزرى إلى ثلاثة مجلدات واستدرك عليه ، ويضيف ابن خلكان قوله والمختصر هو الموجود بأيدى الناس والأصل قليل الوجود " وله كتاب : تاريخ مرو قال الزركلى أنه مطبوع يزيد على عشرين جزءا ، وكتاب : تذييل تاريخ ببغداد للخطيب البغدادى قال الزركلى إنه مختصر مخطوط ،وله كتاب : أدب الإملاء والاستملاء وقد قام الدكتور مصطفى رجب بتحقيق هذا الكتاب ،وله كتاب فرط الغرام إلى ساكنى الشام فى ثمانية أجزاء وكتاب التحبير فى المعجم الكبير قال الزركلى إنه مخطوط ،ينقص أوراقا قليلة من أوله ومن آخره ويقول الزركلى اقتنيت تصويره ،وله كتاب : تبين معادن المعانى قال الزركلى أنه مطبوع فى لطائف القرآن الكريم ، وله كتاب : تاريخ الوفاة للمتأخرين

---

(١) معجم الأدباء ، ٣٥٧/٣ والزركلى ، مرجع سابق ، ٧٠/٣ والسيوطى ، مرجع سابق ، ص ٢٥١

من الرواة ، وكتاب : طراز الذهب فى أدب الطب ويقول عنه الدكتور مصطفى رجب يبدو أنه كتاب تربوى ولكنه مفقود فلم يجد الباحث أى إشارة إليه فى المصادر المتاحة عدا طبقات السبكى ،ولم يعثر عليه فى قائمة المخطوطات فى دار الكتب المصرية " (١)

وقد أشار ياقوت الحموى إلى أستاذه السمعانى فى أكثر من موضع من معجميه (الأدباء ، والبلدان) وفى كل مرة يتحدث ياقوت عن شيخه يختار له عبارات المدح والثناء ،وذكر الفوائد التى حصل عليها من خلال حضوره لمجالس التعليم التى كان يعقدها شيخه السمعانى ، فقد نشأ السمعانى نشأة علمية فى أسرة وفرت له فرصة لقاء العلماء الذين كانوا يترددون على زيارة والده ،والإفادة من علمه فقد " كان جده المنصور ت :٤٨٩هـ إمام عصره بلا منازع ،وصار إمام الشافعية فى التدريس والافتاء وكان والده (محمد ابن المنصور ت : ٥١٠ هـ إمام فاضلا ،ومحدثا فقيها على مذهب الشافعية ،ومدرسا فى المدرسة النظامية ببغداد يدرس مادة الحديث " (٢)

ومما سبق يرى الباحث أن البيئة الأسرية والظروف المحيطة بالسمعانى كان لها أثر بالغ فى تقدمه العلمى ، فنشأته فى بيت علم مثل هذا البيت وفرت له منذ بداية حياته فرصا قد يفتقر إليها غيره من لقاء العلماء الذين كانوا يزورن هذا البيت ويعرفون لأصحابه فضلهم ومكانتهم ، كما كان لذلك أثره فى دفعه إلى التعلم فى سن مبكرة ، إذا عرفنا أن أباه توفى وكان السمعانى صغيرا أدركنا أنه لم يقض فى حياة أبيه إلا أقل من أربع سنوات أى أنه بدأ الجلوس فى حلقات العلم فى سن مبكرة جدا الأمر الذى ساهم فى بنائه العلمى وتكوينه التربوى .

---

(١) الزركلى ، مرجع سابق ، ٥٥/٤ ، والسبكى ، مرجع سابق ، ٢٥٩/٤ وابن تغرى بردى ، مرجع سابق ، ٥٦٣/٥ وجورجى زيدان ، مرجع سابق ، ٦٨/٣ ،و تذكرة الحفاظ ، ١٠٧/٤ ومصطفى رجب ، مرجع سابق ، ص ص ٨١،٨٢ نقلا عن ابن خلكان، ١١٦/٢ وعمر رضا كحالة ، مرجع سابق ٤/٦

(٢) الزركلى ، مرجع سابق ١١٢/٧ والسبكى ، مرجع سابق ، ١٨٦/٤- ١٨٩

وقد اهتم السمعانى بلقاء الشيوخ ، طوال رحلاته وحياته العلمية ، فقد بلغ عددهم أربعة آلاف شيخ أو يزيد ، ويبدو أن علاقته بهم أو بمعظمهم كانت تقوم على تقدير عظيم له ، فإننا نجد أن بعضهم حين كان يخرج لتوديعه عند زيارته لهم يبكى ، مما يدل على قوة علاقته بهم وإكبارهم لمكانته "[(١)] وذكر ياقوت الحموى أنه لم يقتصر على تلمذته لشيخه السمعانى فقط وإنما تتلمذ على كتب والده (محمد بن المنصور) ،وقد اعتمد ياقوت عليها فى كثير من مؤلفاته غير أنه كان إذا أشار إليها يقول " وقد ذكر شيخنا فى كتاب منهاج السنة ،وكتاب الانتصار مسألة القدرية " [(٢)]

ولاحظ الباحث هنا التواضع فى حديث ياقوت عن شيخه ، والوفاء والتوقير لمكانته فكان إذا ذكره يلقبه بشيخنا أو عالمنا ، مما يدل على الاحترام من التلميذ لأستاذه ، اعترافاً بفضله، وما أسداه إليه من علم ، وما اكتسبه منه من خلق وفضل ، وما حصله من معرفة وعلم ، غير أن الحياة التى مر بها ياقوت فى رحلاته وتنقلاته بين البلدان بسبب ضيق ذات اليد التى كان يعيشها لم تتح له أن يتتلمذ تلمذة مباشرة على يد شيوخ معروفين فى عصره غير هؤلاء الذين التقى بهم فى بلدة العلماء (مرو) والتى قضى به أزهى سنوات عمره ،وقد أضاف الدكتور / السيد محمد ديب فى كتابه" ياقوت الحموى ناقداً وأديباً " إلى هذين الشيخين عالماً ثالثاً ظن أن ياقوت تتلمذ على يديه وهو (يعيش بن على بن يعيش ت : ٦٤٣هـ) ،وقد قام الباحث باستطلاع كتب التراث والمصادر المتاحة فلم يجد أى إشارة إليه ، بالإضافة إلى أن ياقوت نفسه لم يشر إلى تلمذته على يد (أبى البقاء يعيش) غير ما ذكره الزركلى عن سنة وفاته [(٣)]

ومن علماء مرو الذين تتلمذ لهم ياقوت وقد أشار إليهم ياقوت إشارة مفردة وقصيرة على غير عادته فى حديثه عن شيوخه فى كتاب (معجم البلدان) منهم (أبو عبد

(١) مصطفى رجب ، مرجع سابق ، ص ٨١ .
(٢) معجم الأدباء ، ٥٦٥/٤، ٣٦٨/٣ ومعجم البلدان ، ١٠/١ و٣٤/٥ -١٠٧
(٣) الزركلى ، مرجع سابق ٢٠٥/٨ والسيد محمد ديب ، مرجع سابق ، ص ٦١

الله الحامدى ت: ٤٠٥هـ)[١] ولتقدم سن وفاته عن ميلاد ياقوت فإن الباحث يرى أن هذه التلمذة ، كانت على كتب الحامدى أى تلمذه غير مباشرة ، وقد كان هؤلاء العلماء من الكثرة ، حتى أن ياقوت لم يفرد لهم فى تراجمه .

الظروف الاجتماعية والاقتصادية التى عاشها ياقوت :

لقد عاش ياقوت الحموى ظروفا اجتماعية واقتصادية قاسية منذ بداية أسره من بلاده ، وتولى سيده عسكر أمره ، ويكفى أن نلاحظ أن الحياة التى عاشها ياقوت كانت من القسوة بحيث أنها لم تتح له الفرصة على بناء أسرة يشعر فيها بالأبوة والحنان ، غير هذا الجارية التى اشتراها أثناء إقامته بنيسابور فى غفلة من الدهر خرج بها عن عادته مع ياقوت ،وقد صادفت هذه الجارية من نفس ياقوت محلا كريما ،من حيث العاطفة التى تبادلها ياقوت مع هذه الجارية التى أحسن الله – عز وجل – فى خلقها وخلقها ، وكان له ميل إليها يضاعف ميله إليها ، غير أنه باعها متحججا بضيق ذات اليد ، الأمر الذى عاش ياقوت بسببه حالة من عدم الاستقرار العاطفى [٢] هذا عن الحياة الاجتماعية التى عاشها ياقوت

أما عن الحياة الاقتصادية لياقوت :

فقد كانت حياته معدمة ، حيث قبل العمل فى تجارة سيده عسكر الحموى وقد شغله مولاه بالأسفار فى متاجره ، وبها كان يتردد بين البلدان ،ويعود إلى حيث إقامة سيده فى الشام ، حتى حدثت بينه وبين مولاه نبوة (جفوة وتباعد) كانت سببا فى عتقه فأبعده سيده عنه ،وكان ذلك فى سنة ٥٩٦هـ ،وبجانب تردد ياقوت بين البلدان فى تجارة سيده عسكر اهتم بالكتابة والنسخ بالأجرة ، حتى يزيد بذلك دخله ،ويرفع مكانته الاقتصادية لضروريات الحياة ، كما أتاحت له الكتابة والنسخ أن يطلع على آلاف الكتب

---

(١) الزركلى ، مرجع سابق ، ٧٧/٦ .
(٢) معجم البلدان ، ٣٠٦/٣ ، ومعجم الأدباء ، ٣٠٧/٣

التى لا نستطيع حصرها وبيان عددها ، فلا تكاد تمر ورقة من مؤلفاته إلا رأيناه يشير إلى كثير من أمهات الكتب ، وعند الإشارة إلى كتاب كان يعطى فكرة عن موضوعه ، مع الاهتمام بالضبط اهتماماً كبيراً ، وبالنسخ والكتابة اضطلع ياقوت على الكثير من خزائن الكتب الموجودة فى المدن التى رحل إليها ،والتى كانت فى متناول يده ، ولم يجد صعوبة فى وصوله إليها وحصوله على هذه الكتب ، فكانت له همة فى تحصيل المعارف وجمع المعلومات ، وكان مدمنا للقراءة ، شغوفاً بأخبار العلماء متطلعاً إلى أنباء الأدباء وبتجارته فى أموال سيده بقيت بيده بقيه من مال سيده جعلها رأس ماله ، واتخذها طريقاً للتجارة (١)

ومما سبق لاحظ الباحث أن ياقوت الحموى خرج إلى الحياة يتعلم منها شيئا جديدا ، لأنه لا يملك مالاً يتاجر به سوى هذا الجزء البسيط الذى ورثه عن سيده ، فأخذ يتنقل به بين البلدان للتجارة به ، واعتمد على جودة خطه فى نسخ الكتب ، فقد كان لديه خط جميل يستطيع أن يكتسب به قوته ، وهو ذو ماض فى التجارة ، فأخذ يتاجر فى الكتب حتى أصبحت الكتابة هى صناعته التى يكتسب منها ، بل استخدمها أيضا لنفسه يقرؤها بعناية وتصفح ويتاجر فيها مكتوبة ، ومدونة فى كتب ، وإنه كانت هذه المهنة لا تدر دخلاً كبيراً غير أنها تجعل صاحبها على قدر كبير من الثقافة العلمية من خلال ما يجمعه من الكتب ،وما يقرؤه منها .

منهج ياقوت فى التأليف :

لقد اتخذ ياقوت الحموى لنفسه منهجاً فى التأليف والكتابة يتجلى فى كل مؤلفاته فقد اعتمد على التوثيق والتأكد من مصادر المعلومات التى يقتبسها من كبار العلماء فى العلوم ، فقد اشتهر بالإسناد ،وذلك بذكر اسم المؤلف واسم الكتاب الذى قام بتأليفه ، لذا احتوت مؤلفاته على أسماء مؤلفين ومؤلفات لا نعرف عنهم شيئاً ، نرى أنها

(١) ابن خلكان ، مرجع سابق ، ١٢٧/٦ ومعجم الأدباء ، ١١/١

فقدت أثناء غارات التتار على المدن الإسلامية وإحراقهم للمكتبات وما بها من كتب العلماء (١)

وقد جاء كتاباه معجم الأدباء ومعجم البلدان شاهدين على ذلك فقد جمعا بين دفتيهما أسماء كتب قد ضاعت لعمالقة من علماء العرب والمسلمين ، ولا تكاد تمر ورقة من مؤلفاته إلا رأيناه يشير إلى كثير من أمهات الكتب وعندما يشير إلى كتاب يعطى فكرة عن موضوعاته التى يحويها هذا الكتاب ، وقد اعتمد فى كتاباته على إثبات الكتابات التى سبقته فى مجال تأليف كتبه ، مشيرا إلى الفائدة التى اطلع بها من خلال قرأته لهذه الكتب ، والذى لم يطلع عليه من هذه الكتب التى نقل منها واعتمد عليها .فذكر من الكتب التى اعتمد عليها فى تأليف كتابه " معجم الأدباء " كتاب : أخبار النحاه للصابئ (محمد بن عبد الملك) قائلا :" ثم ألف فيه أى الترجمة للعلماء والأدباء ، أبو سعيد المرزبانى السيرافى ت : ٣٦٨ هـ وقد كتب السيرافى كتاب : أخبار النحويين المصريين قال عنه الزركلى إنه مطبوع ، وكتاب : شرح كتاب سيبويه ، قال الزركلى إنه مخطوط فى دار الكتب تحت رقم ١٣٧، ١٣٨ ، ٣٦١ نحو ، ويقول ياقوت عن كتاب الصيرافى إنه كتاب صغير فى نحاة البصرة نقلنا أيضا من فوائده إلى هذا الكتاب (معجم الأدباء) ويذكر أيضا من الكتب التى اعتمد عليها كتاب : شجرة الذهب فى أخبار أهل الأدب لصاحبه (أبى الحسن المجاشعى القيروانى ت : ٤٧٩هـ) وهو عالم باللغة والأدب والتفسير من أهل القيروان (٢) وعنه قال ياقوت " وقع إلى شيئٌ منه (كتاب شجرة الذهب فى أخبار أهل الأدب " فوجدته كثير التَرجم ، إلا أنه قليل الفائدة لكونه لا يعتنى بالأخبار ، ولا يعبأ بالوفيات والأعمار (٣) ولذا اهتم ياقوت فى كتابه (معجم الأدباء) بذكر تاريخ الميلاد

(١) معجم الأدباء ، ٢٨،٢٩/١ وزغلول راغب النجار ، وعلى عبد الله الدفاع ، مرجع سابق ، ص ٣٩٧
(٢) حاجى خليفة ، مرجع سابق ، ٣٠/١ والزركلى ، مرجع سابق ، ١٩٦/٢ ، ٣١٩/٤ والقفطى ، مرجع سابق ، ٣١٣/١ ، ٢١٩/٢ والخطيب البغدادى ، مرجع سابق ، ٣٤١/٧ وابن الأنبارى ، مرجع سابق ، ص ٣٧٩ والسيوطى ، مرجع سابق ، ص ٣٤٥
(٣) معجم الأدباء ، المقدمة ، ص١٠

وتاريخ الوفاة ، لكل عالم أو أديب يترجم له ، ومنه رأى الباحث أن ياقوت كان يتحرى الدقة والصدق فى المعلومات التى يحصل عليها ، ويثبت منها ما يراه صائباً ويترك ما خلاف ذلك وإن ثبته كان يقول هو عند فلان كذا وكذا .

وكان ياقوت يخالف غيره من المؤلفين والكتاب فى استشهاده ببعض آيات القرآن الكريم ، فى الكثير من كتاباته ، وكان يذكر الآية نصا أو يضمنها كلامه بتصرف منه ،وربما استطرد فى شرحها وبيان مناسبتها ثم يعود مرة أخرى إلى حديثه فيقول فى حديثه عن مكة فى كتابه معجم البلدان ، أن الله - تعالى -سماها أم القرى فقال:

".... لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ... " (١)"

وسماها البلد الأمين فى قوله تعالى:

" وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ " (٢)

ويقول إن الله تعالى قال :

" لَآ أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ " (٣)

وقال تعالى ".... وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ " (٤)

وقال تعالى " جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ ... " (٥)

ثم يذكر ياقوت ما ورد على لسان سيدنا إبراهيم (عليه السلام) فى قول الله تعالى:

" رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ " (٦)

---

(١) سورة الشورى : من الآية ٧.
(٢) سورة التيـــن : الآيـات ١ :٣ .
(٣) سورة البلـــد : الآيـات ١ : ٢.
(٤) سورة الحـــج : من الآية ٢٩.
(٥) سورة المائـدة : من الآية ٩٧.
(٦) سورة إبراهيـم : الآيـــة ٣٧.

وقوله تعالى :

" رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ "(١)

وكان ياقوت يذكر أحيانا الآيات القرآنية بتصريف ، فحينما يتحدث عن مصر كان يحرص على ربط كتاباته ببعض آيات القرآن الكريم مصرفة فيقول : إن مصر خزائن الأرضين كلها وسلطانها سلطان الأرضين كلها ألا ترى إلى قول يوسف (عليه السلام) لملك مصر

" قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ " (٢)

ففعل فأغاث الله الناس بمصر وخزائنها ، ثم يقول ياقوت إن الله - عز وجل - لم يذكر مدينة بعينها بمدحها غير مكة إلا مصر ، فإنه قال:

" ... أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ... " (٣)

وهذا تعظيم ومدح (٤)

ولم يقتصر ياقوت فى كتاباته على الاستشهاد بآيات القرآن الكريم فقط وإنما كان يستشهد بأحاديث النبى (ﷺ) يذكرها مرة منصوصة وأخرى بتصريف فقد ذكر فى حديثه عن ببيت المقدس قول النبى (ﷺ) : لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدى هذا ،والمسجد الحرام ، ومسجد بيت المقدس . وكان ياقوت عند استشهاده بالأحاديث يترك السند (الرواه) ، حتى لا يضخم حجم كتاباته

وقد اتخذ ياقوت من الأمثال محكاً للحكم على ما يذكره فى كتاباته ، وقد استعان بالأمثال العامة التى تعبر عن ثقافة طبقة عريضة من المجتمع ، وكان يشرح أصل هذه الأمثال ، ويبين المناسبة التى قيلت فيها هذه الأمثال ثم يذكر مكانة المثل من القصة التى

---

(١) سورة إبراهيم : من الآية ٣٥.
(٢) سورة يوسف : الآية ٥٥.
(٣) سورة الزخرف : من الآية ٥١.
(٤) معجم البلدان ، ١٨٢/٥ ، ١٣٧/٥ – ١٦٦

يذكرها ، مثل قصة أسعد بن المنذر ، وعمرو بن هند فقد ذكر فيها مثل قال فيه : إن الشقى وافد البراجم (١)

وقد أكثر ياقوت من هذا النوع من الكتابة فى معجم الأدباء ، حتى أن الباحث لاحظ فى أكثر التراجم الطوال أن ياقوت كان يذكر الأمثال ويشرحها فى أسلوب مرسل قد لا يدخل فيه البديع أحيانا ، كما ذكر فى ترجمته للقفطى الذى سبقت ترجمته (٢)

وكان ياقوت الحموى يتخذ من السجع فى أسلوبه القليل عند حديثه عن تراجم بعض العلماء ، كما وضح ذلك فى ترجمته لابن النديم "(٣)

وكان ياقوت الحموى كثيرا ما يتبع الأسلوب العلمى فى حديثه عن البلدان التى رحل إليها ، معتمدا على الملاحظة الدقيقة دون الانصراف بذهنه إلى الزخرفة ، اللفظية بل يصف ما يشاهده مثل وصفه للأهرامات المصرية ، ووصفه لنهر جيحون ، ومن هنا فقد جاء أسلوب ياقوت التأليفى فى كتبه معتمدا على الملاحظة ووصف المشاهدات والأخذ بالمحسنات البديعية بقصد وبدون إسراف إلا حيث يستدعى الموقف ، وكذلك نلاحظ أسلوبه سهل الألفاظ ، واضح العبارات ، ساعده ذلك على إتمام كتاباته ، وقد جمع ياقوت العديد من الألوان البلاغية فى كتاباته ومن أكثر هذه الألوان التشبيه الذى ظهر واضحا فى ترجمة ياقوت للحسن بن محمد الكاتب واعتمد ياقوت على الاستعارة فى بعض المقامات التى تستدعى هذا اللون من ألوان البلاغة "(٤)

وبالإضافة إلى ذلك كان ياقوت يكثر الاستشهاد بالشعر فى مؤلفاته فقد لاحظ الباحث أن ياقوت أكثر من استشهاده بالشعر فى تراجم العلماء والأدباء ، فى معجم الأدباء أكثر من غيره من المؤلفات الأخرى ، فقد كانت تطول شواهده فى معجم الأدباء عن

---

(١) المرجع السابق ، ٣٧٤/١ – ٥٠٥

(٢) معجم الأدباء ، ٤٧٩/٤ .

(٣) المرجع السابق ، ٣٥٧/٤

(٤) معجم البلدان ، ١٩٧/٢ ومعجم الأدباء، ١٠٥/٣، ١٤/٥-٦٥ وزغلول راغب، وعلى الدفاع، مرجع سابق ، ص ٣٩٥

غيره من المؤلفات لأنه يترجم فيه لرجال يحتاج معهم للنقل عنهم وذكر مواقفهم من العلوم الأخرى (١)

وكان ياقوت يعبر عن شخصه وبيئته من خلال كتاباته ولا يخشى أن يسأل إذا لم يتمكن من معرفة الشيء بل يطلب من غيره أن يعاونه فى ذلك حينما يعجز عن إتمام الفائدة العلمية فيقول : وفى أخبار بلاد الروم أسماء عجزت عن تحقيقها وضبطها فليعذر الناظر فى كتابى هذا ومن كانت عنده أهلية ومعرفة وقتل شيئا منها علما فقد أذنت له فى إصلاحه مأجوراً (٢)

وكان ياقوت يتحرى الصدق والدقة فى النقل ، ولا يتحمل تبعة مالا يطمئن إلى صحته بل ينوه عليه فيقول : هذا شيء من أخبار الصين الأقصى ذكرته كما وجدته لا أضمن صحته فإن كان صحيحا فقد ظفرت بالغرض وإن كان كذبا فتعرف ما تقوله الناس (٣) ومن خلال هذا المنهج الذى قدمه شيخنا ياقوت كان يطلب من مؤلفى الكتب ضرورة التأكد من صحة المعلومات بعد جمعها عن طريق المراجعة بعد الانتهاء من كتابة مؤلفاتهم بل أنه يفضل أن تكون المراجعة عن طريق شخص آخر غير مؤلف الكتاب لأنه يكون أبصر بما فى الكتاب من خلل وقصور أكثر من مؤلف الكتاب غير أنه يطلب من الشخص الذى يراجع الكتب ألا يتعمد العنت ولا يقصد طريق من رأى حسناً ستره وإذا رأى عيباً أظهره بل عليه أن يتأمل الكتب بين الإنصاف والتوسط لأن الكمال محال لغير الله(عزوجل) والإنسان ليس معصوماً من الخطأ بل النسيان فى الإنسان موجود فيقول فى معجم الأدباء" وأنا فقد اعترفت بقصورى (عجزى) فيما اعتمدت عن الغاية وتقصيرى عن الانتهاء إلى النهاية ، فأسأل الناظر فيه ألا يعتمد العنت ولا يقصد قصد من إذا رأى حسناً ستره وعيباً أظهره وليتأمله بعين الإنصاف لا الانحراف فمن طلب عيباً

(١) السيد محمد ديب ، مرجع سابق ، ص ص، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ .
(٢) معجم البلدان ، ٩٨/٢
(٣) المرجع السابق ، ٤٠/٣ .

وجده ومن افتقد (بحث) زلل (خطأ) أخيه بعين الرضا فقد ، فرحم الله امرأ قهر هواه وأطاع الإنصاف ونواه وعذرنا فى خطأ إن كان منا وزل إن صدر عنا ، فالكمال محال لغير ذى الجلال ، فالمرء غير معصوم ، والنسيان فى الإنسان غير معدوم وإن عجز عن الاعتذار عنا والتصويب فقد علم أن كل مجتهد مصيب ، فإنا وإن أخطأنا فى مواضع يسيرة فقد أصبنا فى مواطن كثيرة (١)

ولا شك أن هذه دعوة صادقة ومنهج علمى سليم تتكشف فوائده لمن يتخذ من منهج ياقوت منهجا علميا يسير عليه بالنسبة لهؤلاء الكتاب وقد تبع بعض العلماء منهج ياقوت كما فعل جعفر بن يحيى (٢)

وقد تحدث بعض الكتاب عن فضل ياقوت فى التأليف وأنه لم يترك شيئاً ، كما ذكر ذلك الأستاذ محمد عبد الغنى حسن وقد أرجع فضل ياقوت إلى عمله بالنسخ فترة طويلة(٣)

وقد أفاد ياقوت من جودة خطوط العلماء والكتاب مثل خط ابن البواب والقاشانى صاحب الخط كثير الضبط المعقد ، سلك فيه طريقة شيخه ابن جنى (٤)

الخلاصة :

من خلال هذا العرض لمنهج ياقوت الحموى فى الكتابة والتأليف نلاحظ أنه اتصف بالصدق والأمانة العلمية ، واعتمد على الملاحظة الدقيقة والمشاهدة الواقعية ، وجمع فى كتاباته الكثير من المحسنات البلاغية ، وألوانها والعبارات والألفاظ السهلة ، مستخدما اللغة فى صياغة هذه العبارات وتلك الجمل متنوعاً فى ألوان الفنون بين ما يعتمد منها على العقل والتفسير ، وبين ما يكتفى فيه بالرواية والسماع ، مما يجعل ياقوت كاتباً بارعاً

(١) معجم الأدباء ، ٣٤/١
(٢) المرجع السابق ٣٤/١
(٣) محمد عبد الغنى حسن ، علم التاريخ عند العرب ، القاهرة مؤسسة المطبوعات الحديثة ، ١٩٦١ م)، ص ٦٧
(٤) معجم الأدباء ، ٣٥٢/٤ –٤١٣

ويمكن أن نطلق علي هذا المنهج الذى استخدمه ياقوت منهج الربط والإحالة فكان إذا تكلم عن بلد ذكر علمائها ، ثم يحيل القارئ إلى الترجمة لهذا العالم أو غيره فى معجمه

مؤلفات ياقوت :

بدأ ياقوت حياته العلمية فى تأليف الكتب مع بداية رحلاته وتنقلاته بين البلدان وبعد الحادث الأليم الذى قاسى ياقوت مرارة وضراوته وهو غزو التتار وبيع الجارية ، ومع هذه الحياة القلقة المضطربة استطاع ياقوت أن يكتب الكثير من الكتب غير أن الكثير منها فقد أثناء تنقلاته ورحلاته ، ومن المؤلفات التى بين أيدينا نتداول فوائدها وكان ياقوت قد كتبها بعد عودته من خرسان وخوارزم ومن هذه المؤلفات التى أشار لها ياقوت : إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب وسماه أيضا إرشاد الألباء إلى معرفة الأدباء ويعرف أيضا معجم الأدباء وهو من الكتب المطبوعة منه : طبعة دار المأمون التى تقع فى عشرين جزء وقد طبع الكتاب عن طريق دار الكتب العلمية ببيروت طبعة تقع فى ست مجلدات يحتوى كل منها على أربعة أجزاء والمجلد السادس فهارس ، ومن مؤلفاته : كتاب معجم البلدان وهو من الكتب المطبوعة يقع فى ثمانى مجلدات وله كتاب : معجم الشعراء وهو مطبوع جمع فيه ياقوت الكثير من الشعراء المتقدمين والمتأخرين وقد رتبه على اثنتين وأربعين جزءا على حروف التهجى ، وكتاب : المشترك وضعاً والمختلف صقعاً وهو من الكتب النافعة وهو مطبوع أيضا وله كتاب المبدأ والمآل فى التاريخ ، وكذلك كتاب : الدول وعنوان : الأغانى ، وكتاب المقتضب من كتاب جوهرة النسب وهو مخطوط وله أيضا كتاب أخبار المتنبى . (١)

---

(١) معجم الأدباء ، ١٢،١٣/١ وجورجى زيدان ، مرجع سابق ، ٨٨/٣ والزركلى ، مرجع سابق ، ١٣١/٨ وحاجى خليفة ، مرجع سابق ، ١٧٣٣/٢، ١٧٣٤، ١٧٣٥ ، ١٦٩٠، ١٦٩٢ ، ١٩٩٣

معجم الأدباء وآراء العلماء فيه :

كان على الباحث أن يوضح بشيء من الإيجاز أهمية كتاب معجم الأدباء ، وهو من الكتب الزاخرة بالعلم والعلماء ، حتى أن ياقوت لم يخصه بزمن محدد لتأليفه ، بل كان يضيف إليه باستمرار حتى سنة وفاته ، فلم يتوقف ياقوت عن تغذية المعجم بكل جديد ومن يتصفح هذا الكتاب المخطوط يجد فى بعض التراجم مسافات بيضاء كسطر أو نصف سطر كان ياقوت قد تركها عند التبييض على أمل أن يملأها بما ستأتى به الأيام أو يصل إلى معرفته بالبحث أو السؤال أو التنقيب .

بدأ طبع هذا الكتاب لأول مرة بمطبعة هندية بالقاهرة سنة ١٩٠٧ م واكتمل الكتاب فى نهاية الطبع سبعة أجزاء ، وقد أشرف المستشرق ديفيد صموئيل مرجليوث على نشره وتصحيحه ، وتحملت لجنة الوقف للمستشرق تكاليف الطبع ، واعتمد الناشر على نسخة خطية محفوظة فى مكتبة برويل بجامعة اكسفورد تحت رقم ٧٢٣ ، وفى مقدمة الكتاب يحكى مرجليوث قصة اقتناء مكتبة برويل لهذه النسخة التى احتوت على أغلاط كثيرة بين تحريف وتصحيف واضطراب فى الخط الأمر الذى يدل على أن الناسخ لها كان غريباً عن العربية ، وقد اعترف الناشر بجهد العلماء الأفذاذ الذين قرءوا نماذج الكتاب قبل أن يتم طبعه ومن هؤلاء العلماء الشيخ عبد العزيز جاويش ومحمد حسنين الغمراوى ، والشيخ إبراهيم اليازجى وقسطاس الحمصى ، وجورجى زيدان ، وقد أعاد مرجليوث طبع هذا الكتاب فى سنة ١٩٢٣ بعد أن أدخل عليه بعض التعديلات والتنقيحات الكثيرة بعد أن استشار : أحمد زكى والأب انستاس الكرملى وبعض المراجع التى تيسر له الحصول عليها وأفاد مرجليوث أن الكتاب لم يصل كاملاً حتى هذه الطبعة ، ثم قامت دار المأمون فى سنة ١٩٣٦ بطبع الكتاب فى عشرين جزءا بمطبعة عيسى الحلبى وكان كل جزء فى مجلد وقد عاونت وزارة المعارف دار المأمون فى تصحيح وإعداد الكتاب للطبع (١)

(١) معجم الأدباء ، المقدمة ، ص ٤ ، ٥،٦

وقد اعتمد الباحث على هذه الطبعة فى بدء الدراسة غير أنه وجد بها بعض الأخطاء والمفارقات التى كانت تتطلب منه التوقف كثيراً للتأكد من صحتها ، وقد أكمل الباحث الدراسة مستعيناً بنسخة قامت دار إحياء التراث العربى ببيروت بطبعها ، وهى تقع فى ست مجلدات تحتوى الخمس الأولى على عشرين جزء كل أربعة أجزاء فى مجلد واحد والسادس يتناول الفهارس .

ويرى الباحث أن الكتاب بهذا الوضع يحتاج إلى طبعة أخرى تنقى من هذه الأخطاء وتضع التراجم الملحقة فى مكانها حسب الترتيب المعمول به فى هذا الكتاب .

وبتحليل الكتاب نجد أن مقدمته تعد من أطول ما كتب من المقدمات فى كتب التراجم والطبقات إذ لم تكن أطولها جميعا ، غير أن شيخنا ملأها بالفوائد الأدبية وحدد فيها بعض مناهجه عن هذا الكتاب ، وهى تقع فى إحدى وعشرين صفحة حتى تتناسب مع حجم الكتاب ، ولم يغفل ياقوت فى مقدمته عن ذكر من سبقوه بالكتابة فى تراجم الرجال فقد كتب عنهم وتحدث عن كتبهم وكان له منهج سليم فى عرض هذه الكتب فهو ينقدها ويشير إلى موضوعها ويذكر عدد مجلداتها كما ذكر : المقتبس للمرزبانى (١)

وقد شرح ياقوت منهجه فى الترجمة للرجال فقد ذكرهم بطريق الإيجاز مع ذكر مواليدهم وتواريخ وفياتهم ، وكان يذكر بعض مستحسن أخبار العالم ، وبعض المختار من شعره ، وقد تمسك ياقوت بهذا الكتاب دون إعارته لأحد وكان سبب هذا الشح أن الكتاب كان مخطوطاً لدى ياقوت وخشى إن أعاره لسواه أن تتسرب معلوماته إلى من عداه ، ومن يدرى لعل شيئا قليلا أو كثيرا من الكتاب ينقله ناقل وينسبه إلى نفسه ويضيع على ياقوت ما بذله من جهد ووقت ، وتفكير وإبداع ، وقد أشار ياقوت إلى ذلك بقوله " وقد أقسمت ألا أسمح بإعارته ما دام فى مسودته ، لئلا يلح طالب بالتماسه "(٢)

(١)المرجع السابق ، ٤٧/١
(٢) المرجع السابق ، ٦٢/١

وقد ترجم ياقوت فى معجمه لكل من اشتغل بالعلم والأدب واللغة والنحو والكتابة فى الرياضيات والهندسة والفلك وغيرها من العلوم العقلية ، واهتم بجانب هؤلاء بالترجمة للوراقين وأصحاب الخطوط لألفة المهنة فقد اشتغل ياقوت فى مستهل حياته بنسخ الكتب بالأجرة ، ولم يقتصر ياقوت فى معجمه على أدباء عصر دون عصر بل ترجم لكل من خدم الأدب العربى إلى عهده وزمانه ، وقد ترجم لأدباء أحياء فى عصره مثل : القفطى الذى توفى بعده بعشرين عام .

وقد رتب ياقوت الأعلام فى معجمه على نظام الترتيب الألف بائى فقال :" وقد جعلت ترتيبه على حروف المعجم ، أذكر أولا من أول اسمه (أ) ثم من أول اسمه (ب) ثم (ت) ثم (ث)إلى آخر الحروف " (١)

وكان ياقوت إذا اتفق الرجال فى أسمائهم وأسماء آبائهم كان يلجأ صاحبنا إلى تاريخ الوفاة فيقدم فى الذكر من تقدمت وفاته وقد سبق أن أشرنا إلى منهج ياقوت فى تأليف كتبه .

(١) المرجع السابق ، ٥١/١.